غاية الطالبين فى بلاغة رياض الصالحين

الجزء الثانى

باب التوبة – الآية الأولى

دكتور

د. القطب عبد السلام طه الجيار

أستاذ مساعد بقسم البلاغة والنقد

كلية اللغة العربية – جامعة الأزهر بالقاهرة

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاح

"والغرض من ذكر هذه الجمل التنبيه على أن الكلمات القرآنية كل كلمة منها بحر لامقر له ولاساحل؛ فأنى للمعارض الماحل" .

الفيروزابادى[1]

"ومثل هذه المعانى يستدعى لطافة ذهن ورقع طبع، ولاتتأتى مع غلظ القلوب، والرضى بأوائل مسائل النحو والتصريف دون تأملها، وتدبرها، والنظر إلى حكمة الواضع، ومطالعة مافى هذه اللغة الباهرة من الأسرار التى تدق على أكثر العقول" .

ابن القيم الجوزية[2]

(١) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز جـ١/ ٧٥ .

(٢) جلاء الأفهام فى الصلاة والسلام على خير الأنام/ ٨٨ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مقدمـــة

حمداً لمن تفرد بالبيان وحده، وصلاة وسلاماً على من لابليغ بعده.

وبعـــــد ،،

فهذا هو الجزء الثانى من الدراسة التى بدأت بها، وعزمـت علـى إتمامها وأسميتها (غاية الطالبين فى بلاغة رياض الصالحين)؛ خدمة لهذا السفر الجليل فى البيان النبوى الذى لايستغنى عنه صـحيح أو عليـل. أخرجت منها الجزء الأول فى (باب الإخلاص وإحضار النية). وها أنا ذا – بعون من الله وتوفيقه – أردفها بدراسة الباب الثانى : (باب التوبـة). وهى تحذو حذو نظيرتها السابقة فى المنهج الذى رسمته – منهج السؤال والجواب – وهو مسلك نافع دقيق له جذور تاريخية ترجع إلى عـصور العلم الزاهرة؛ إذ عول عليه غير قليل من الأئمة فى هذا الشأن من أمثال الخطيب الإسكافى فى (درة التنزيل...)، والقاضى عبد الجبار فى (متشابه القرآن)، و(تنزيه القرآن عن المطاعن)، والزمخـشرى فـى (الكـشاف) ومحمد بن أبى بكر الرازى فى (حل مشكلات القـرآن)، وأبـى جعفـر الغرناطى فى (ملاك التأويل ..)، وغيرهم من الأعلام فى هذا المضمار .

لذا سلكت هذا المسلك؛ إيماناً منى بجدواه فى بابه، متوخياً فى ذلك العمق والشمولية، ومستقصياً آراء العلماء ومناقشتها وتحقيقها .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهذه هي الحلقة الأولى من تلك الدراسة خصصتها بالآية الأولى من آيات التوبة هي قوله (تعالى): ﴿وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون لعلكم تفلحون﴾ النور. آية ٣١ .

وإني إذ أقوم بهذا العمل لأرجو الله (تعالى) أن يغفر لي مواقع سوء زلة أو تقصير، كما أدعوه أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يستعمله ذخراً لي يوم الدين، وسبيلاً إلى الفوز بجنة النعيم. آمين.

د. القطب عبد السلام طه الجبار

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهذه هى الحلقة الأولى من تلك الدراسة خصصتها بالآية الأولى من آيات التوبة هى قوله (تعالى): ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ النور. آية ٣١ .

وإنى إذ أقوم بهذا العمل لأرجو الله (تعالى) أن يغفر لى ماوقع من زلة أو تقصير، كما أدعوه أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يدخره زخراً لى يوم الدين، وسبيلاً إلى الفوز بجنة النعيم. آمين.

د. القطب عبد السلام طه الجيار

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الآية الأولى

قال (تعالى): ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ النور. آية ٣١ .

وتضم سبعاً وثلاثين مسالة :

المسالة الأولى – تقديم الأمر بالتوبة فى سورة النور على الأمر بها فى سورتى هود، والتحريم .

والجواب أن فى هذا الترتيب مبالغة فى الدعوة إلى التوبة، وحث المخاطبين على المسارعة إلى امتثال الأمر وتحصيله، وإلهاب عواطفهم نحو قبولها ومزيد العناية بها؛ لما فى الوجه المذكور من مزايا عدة تظاهرت على تجسيد هذا المعنى وبيانه.

المزية الأولى – تقرير الأمر بالتوبة فى نفوس المخاطبين عن طريق إتباع المسند إليه بالتوكيد المعنوى فى قوله: "جميعاً)؛ إذ قال هنا: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا ...﴾[1] وقال فى الأخريين: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ....﴾[2]، و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا....﴾[3] بحذف التوكيد المعنوى؛ فاقتضى ذلك تقديم المؤكد على غيره .

---

(١) النور آية ٣١ .

(٢) هود. آية ٣.

(٣) التحريم. آية ٨ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المزية الثانية – توكيد جزاء التوبة فى سورة النور عنه فى هود والتحريم؛ حيث جاء الإخبار عنه هنا بصيغة العموم والشمول فقال: "لعلكم تفلحون" ومادة الفلاح أعم فى استقطاب كل صور السعادة فى الدارين، وحذف متعلق الفلاح يدل على عمومه فى كل زمان ومكان بخلافه فى سورتى هود والتحريم؛ إذ جاء بصيغة التخصيص والتعيين فقال فى الأولى: ﴿يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ وقال فى الثانية: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾[1]؛ فإن التعبير عن الجزاء بمواد التمتع وإتيان الفضل وتكفير السيئات وإدخال الجنات فيه تعيين بعض صور الفلاح؛ من ثم كان التعبير عن جزاء التوبة فى سورة النور أعم، ومما يدل على العموم –أيضاً– حذف متعلق الفلاح؛ فلم يقل: "تفلحون فى كذا وكذا" مثلاً، وإنما جاء بالفعل مجرداً عنه؛ لاستقطاب الفلاح لكل زمان ومكان، فتذهب النفس فيه كل مذهب بخلافه فى هود والتحريم فقد نص على الأزمنة فقط على وجه الإجمال؛ فالتمتع كناية عن وقوع الجزاء فى الدنيا، وإتيان الفضل كناية عن وقوعه فى الآخرة، وتكفير السيئات وإدخال الجنات كناية عن الجزاء فى الدارين .

(١) التحريم. آية ٨ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فإذا عرفت هذا العموم فى الجزاء عرفت أن تقديم آية النور أبلغ؛ لكونه أدعى لامتثال الأمر بالتوبة، وأوكد فى إلهاب رغبة المخاطبين لها مما لاتراه فى مجئ الآيات على نحو آخر من الترتيب.

المزية الثانية: مايفيده هذا الوجه من معنى التفصيل بعد الإجمال؛ ذلك أن الجزاء فى آية النور مبهم، والجزاء فى آيتى هود والتحريم مفصل؛ لأن التمتع وإتيان الحسنات وتكفير السيئات وإدخال الجنات كلها تفسير لألوان الفلاح. ومجئ الكلام على هذا النحو فيه بيان بعد إبهام؛ مما يثير فى نفس المخاطب تشويقاً وترغيباً فى معرفة المبهم؛ فإذا عرفه من آيتى هود والتحريم كان فى نفسه ألذ وأوكد؛ إذ تحقق الشىء بعد التشوف إليه يكون كذلك فى كل موضع .

المزية الثالثة: التنبيه على مشروعية التوبة لكل طوائف البشر مؤمنهم وكافرهم، والإشعار بأن أحداً مهما بلغ فى التقوى وحصل من الاستقامة لايستغنى عنها باعتبار ماجبل عليه من النقص؛ ومبعث هذه المزية أن فى الترتيب المذكور ارتقاء من خطاب عموم المؤمنين – كما تفيده سورة النور – إلى خطاب الكفار والمشركين من الأمم السابقة – كما تفيده قصة نوح وهود وصالح وشعيب فى سورة هود – إلى خطاب خواص المذنبين من المؤمنين – كما تفيده سورة التحريم؛ حيث وقعت الآية فى معرض الحديث عن قصة تظاهر السيدة عائشة والسيدة حفصة على الرسول -ﷺ- وقصة خيانة زوجتى نوح ولوط لهما، ومجئ النظم على هذا الوجه يدل على تقديم أمر المؤمنين بالتوبة على أمر الكفار على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أمر خواص المؤمنين؛ وفى ذلك تنبيه إلى أن الجميع فى حاجة إلى التوبة وأنها مؤكدة فى حق كل إنسان؛ فإذا عرف من خلال آية النور وجوبها على عموم المؤمنين كان ذلك دليلاً على أنها أشد وجوباً فيمن هو أعلى فى المخالفة من الكفار والمشركين وخواص المذنبين من المؤمنين بالطريقة الأولى؛ لذلك قال الزمخشرى وهو ينبه إلى هذا العموم فى آية النور: "أوامر الله ونواهيه فى كل باب لايكاد العبد الضعيف يقدر على مراعاتها وإن ضبط نفسه واجتهد، ولايخلو من تقصير يقع منه؛ فلذلك وصى المؤمنين جميعاً بالتوبة والاستغفار وبتأميل الفلاح إذا تابوا واستغفروا"(١).

وهذا العموم - أيضاً - هو الذى أكد عليه الغزالى حين جعل التوبة هى الأصل الأول الذى تبنى عليه مكارم الأخلاق فقال وهو يتحدث عن القسم الرابع من أقسام الأربعين فى أصول الدين: "القسم الرابع: فى الأخلاق المحمودة، وهى أيضاً عشرة أصول: الأصل الأول: فى التوبة؛ فإنها مبدأ طريق السالكين، ومفتاح سعادة المريدين قال الله (تعالى): ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ وقال الله (تعالى): ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا﴾(٢)، كما أكد عليه الشهيد سيد قطب وهو يتحدث عن هذا العموم فيقول: "وإنها لمعرفة عميقة بتركيب النفس البشرية وانفعالاتها واستجاباتها فإن الخيال ليكون أحياناً أقوى فى إثارة الشهوات من العيان

---

(١) الكشاف جـ٣/ ٧٣ .

(٢) الأربعين فى أصول الدين/ ١٢١ .

وكثيرون تثير شهواتهم رؤية حذاء المرأة أو ثوبها أو حليها.... وفى النهاية يرد القلوب كلها إلى الله ويفتح لها باب التوبة مما ألمت به قبل نزول هذا القرآن ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ بذلك تثير الحساسية برقابة الله وعطفه ورعايته وعونه للبشر فى ضعفهم أمام ذلك الميل الفطرى العميق الذى لايضبطه مثل الشعور بالله وبتقواه"(١).

وليس أدل على ذلك من تصريح الرسول -ﷺ- بهذا المعنى الذى أفاده هذا المسلك فى نظم الآيات فعن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: "قال رسول الله -ﷺ-: "هل من أحد يمشى على الماء إلا ابتلت قدماه؟ قالوا: "لا يارسول الله" قال: "كذلك صاحب الدنيا لايسلم من الذنوب" رواه البيهقى فى كتاب الزهد(٢).

المزية الرابعة: كون آية النور أوجز؛ ذلك أنها على قصرها استقصت معانى عديدة كانت تفتقر إلى أضعاف هذه الآية من الجمل؛ فقد أمرت عموم البشر، ونبهت على عموم الذنوب، وأخبرت بعموم صور الفلاح مما لاتراه فى آيتى هود والتحريم؛ الأمر الذى دعا الفيروزابادى إلى اعتبارها من أوائل جوامع الكلم فى القرآن الكريم حيث يقول: "وأما الآيات المجملة فهى مثل قوله (تعالى) فى سورة يونس: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾، وفى سورة هود: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ

(١) فى ظلال القرآن: سيد قطب جـ٤/ ٢٥١٤، ٢٥١٥ .

(٢) الترغيب والترهيب للمنذرى جـ٤/ ٩٩ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

﴿عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾....، وقولـــه: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾[1].

لذا كان تقديم الأوجز أولى؛ لكونه أقوى فى الخطـاب مـن جهـة، وأعلق فى الذهن من جهة أخرى، كما أن تقديم المجمل على المفصل فيه توطئة وتلطف واستدراج لمعرفة المعانى التفصيلية المتعلقة بالتوبة فى المواضع الثلاثة مما لايوجد فى تقديم المفصل على المجمل بتقديم آيتـى هود والتحريم على آية النور .

المسألة الثانية – علاقة الأمر بالتوبة بما قبله ودلالته :

والجواب أن فى تعقيب النواهى والأوامر السابقة بـالأمر بالتوبـة معنى تقرير وترسيخ التوجيهات السابقة فى نفوس المؤمنين، والتنبيـه على خطورتها وتهويل شأنها بين غيرها من التكاليف الإسلامية؛ ووجهه أن الله تعالى قد عبر عن النواهى والأوامر السابقة بألفاظها الخاصة بها فقال فى النهى عن تتبع خطوات الشيطـان: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ...﴾[2]، وعن دخول بيوت الغيـر بـلا اسـتئذان وتسليم: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾[3]، ثم أعقب ذلك بأمر المؤمنين والمؤمنـات بغـض

(١) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز جـ١/ ١٠٥، ١٠٦ .
(٢) النور. آية ٢١ .
(٣) السورة. آية ٢٧ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البصر، وحفظ الفرج، وستر العورة فقال: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ... وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾، ثم أعقب هذه النواهى والأوامر بالدعوة إلى التوبة وهو معنى عام يشمل النهى عن جميع المعاصى والأمر بكل الطاعات؛ فصار الأمر بالتوبة بعد النواهى والأوامر السابقة من باب ذكر العام بعد الخاص؛ فدخل فى الأمر بالتوبة النهى عن تتبع خطوات الشيطان، ودخول البيوت بلا استئذان....؛ ومن ثم يصبح ذلك التعقيب توكيداً معنوياً للتوجيهات السابقة، فالأمر بالتوبة كأنه أمر على أمر ونهى على نهى؛ وبهذه الكيفية كان فى التعقيب دلالة على تقرير التوجيهات السابقة وخطورتها والحث على مزيد العناية ولم تكن هذه المعانى لتوجد لولا وجوده .

المسألة الثالثة- العدول عن خطاب الرسول إلى خطاب المؤمنين على خلاف مايقتضيه القياس بذكر (قل) فى مقام حث المؤمنين والمؤمنات على غض البصر وحفظ الفرج إذ قال: "قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم... وقل للمؤمنات..." وحذفه فى مقام الحث على التوبة فقال: "وتوبوا ....". والجواب أن فى هذا العدول مقاصد عدة: أولها: تعظيم شأن التوبة وسمو مكانتها بين التوجيهات السابقة والمبالغة فى العناية بها أكثر من غيرها؛ ذلك أن فى ذكر (قل) ودخوله على الأوامر السابقةدلالة على نقلها إلى المخاطبين بواسطة الرسول -ﷺ-، وفى حذف (قل) وعدم دخوله على الأمر بالتوبة دلالة على نقل الأمر بالتوبة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إليهم بلا واسطة أى بمباشرة الله له، وشتان بين توجيه يباشره الآمر وتوجيه لايباشره ويتخذ له واسطة؛ لاشك أن بينهما تبايناً فى المنزلة فالذى يباشره الآمر أعظم من غيره وأهم فى الاعتناء به؛ لذا كان ثمة فرق بين مرتبة الأمر بالتوبة حين تصدر من الخالق إلى عباده وبين مرتبتها حين تنقل بواسطة الرسول فصدورها من الخالق بقوله: "وتوبوا" دون الرسول لو قال "وقل توبوا.." يدل على عظم شأن الأمر وحث المخاطبين على شدة العناية به .

وإلى هذا المعنى يشير أبو السعود بقوله: "وتوبوا إلى الله جميعاً" تلوين للخطاب وصرف له عن رسول الله -ﷺ- إلى الكل بطريق التغليب؛ لإبراز كمال العناية بما فى حيزه من أمر التوبة، وأنها من معظمات المهمات الحقيقية بأن يكون (سبحانه وتعالى) هو الآمر بها"[1] ونقله الألوسى بلفظه دون أن يشير إلى ذلك[2] والطاهر بن عاشور بمعناه[3].

ويؤيد هذا المعنى ماوقع من التفاوت بين التكاليف الشرعية وبين الصلاة فى طريق الإعلام بها، حيث نقلت جميع التكاليف إلى الرسول -ﷺ- بواسطة أمين الوحى جبريل -عليه السلام- فى حين باشر الخالق (جل وعلا) فرضية الصلاة على عباده فى معجزة الإسراء والمعراج بلا

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم جـ ٦/ ١٧١ .

(٢) روح المعانى جـ ١٠/ ٢١٦ .

(٣) التحرير والتنوير جـ ١٨/ ٢١٤ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

واسطة؛ الأمر الذى يدل على أنها أعظم التكاليف شأناً وأخطرها مسئوليةً؛ حيث كانت أول التكاليف التى يسأل عنها العبد يوم القيامة .

وصفوة القول أن الفرق فى المنزلة بين (وتوبوا) وبين (وقل توبوا) كالفرق بين فرضية الصلاة بالمباشرة وفرضية غيرها بالواسطة .

ثانيها: التنبيه على تعظيم شأن التائبين وعظيم فضل الله عليهم، وانحطاط شأن العاصين المصرين على المعاصى وحرمانهم من فضله ورحمته؛ ذلك أن توجيه التوبة من الله إلى المؤمنين بطريق المباشرة دلالة على تشريفهم بخطاب الخالق وإقباله عليهم بما أقبلوا عليه بالطاعة ورجوعه إليهم بالفضل والرضا لما رجعوا إليه بالطاعة والاستقامة، بخلاف توجيه الأوامر السابقة بلا مباشرة فإنه يدل على ذمهم وتحقير منزلتهم وعدم المبالاة بهم، وأنهم لما كانوا غائبين عن ساحة الطاعة استحقوا غيابهم عن ساحة الحضور والمعية مع رب العزة؛ فكأن الخالق يقول: "من رجع إلى وعاد إلى حظيرة التقوى والإيمان رجعت إليه بالرضا والإحسان، ومن عصى وأبى حرم من شرف المعية والرضوان وجعله الخالق طى النسيان". وقد صرح الشرع بذلك فى غير موضع ومنه قوله (تعالى): ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[1] وقال: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾[2] وقد أيقن سيدنا موسى هذا المعنى حين

(١) النحل. آية١٢٨ .

(٢) طه. آية/ ٤٦ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قال وقد أدركه فرعون: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[1]. هذا فى حق الصالحين، أما فى حق الفاسدين الضالين فقال فى انصرافه عنهم وعدم المبالاة بهم ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[2] وأمر رسوله بذلك فقال ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾[3]؛ وغير ذلك من الآيات التى تشهد بالفرق فى المعنى بين حالتى المباشرة وغير المباشرة فى دلالة الأولى على تعظيم المخاطبين والثانية على حقارتهم وعدم المبالاة بهم .

المسألة الرابعة- الالتفات من الغيبة إلى الخطاب؛ إذ مقتضى الظاهر أن يأتى الكلام على طريق الغيبة هكذا: "ويتوبوا إلى الله جميعاً لعلهم يفلحون"؛ جرياً على الطريق ذاته فى قوله (تعالى): "يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم..." الآية فخالف إلى طريق الخطاب وقال: "وتوبوا إلى الله جميعاً أيه المؤمنون.."

والجواب أن النظم جاء على هذا النحو؛ لثلاثة معان:

الأول – المبالغة فى تعظيم شأن التائبين، وسمو منزلتهم عند خالقهم، والارتقاء فى تجسيد رضى الله عنهم؛ باستحقاقهم شرف مباشرة الخالق لهم بالخطاب، ومرد ذلك إلى أن الحديث بطريق الغيبة فيه إشعار بتغييب المخاطبين عن ساحة الحضور والمشاهدة وعدم مبالاة الخالق بهم وانحطاط منزلتهم عنده بخلاف طريق الخطاب فى قوله: "وتوبوا..." الآية

(١) الشعراء. آية ٦٢ .
(٢) الصف. آية ٥ .
(٣) الذاريات. آية ٥٤ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فإنه يدل على عكس ذلك كله على النحو الذى فصلته فى المسألة السابقة.

الثانى – المحافظة على استقامة النظم ودلالته؛ ذلك أنه لو جاء الكلام على طريق الغيبة لأدى ذلك إلى تفويت ذكر النداء فى الكلام؛ إذ يتحول النظم إلى هذه الصورة "ويتوبوا إلى الله جميعاً لعلهم يفلحون" وبذلك يفقد الكلام أهم عناصره وهو النداء وتذهب دلالته وهى مباشرة المؤمنين بالنداء وتنبيههم إلى أهمية المعنى المسوق له الكلام وهو التوبة؛ لذا اقتضى الحال صرف الكلام عن وجهه.

وقد يقال: ألا يصح أن يبقى النداء مع طريق الغيبة هكذا: "ويتوبوا إلى الله جميعاً أيه المؤمنين لعلهم يفلحون"؟ أقول: إن صح هذا فى النظم العام فلا يصح فى هذا المقام؛ إذ يوهم خلاف المعنى المراد، لأن الكلام على هذا الوجه يفيد أن المخاطب بالأمر غير المخاطب بالنداء وليس كذلك؛ فاقتضى ذلك إيثار طريق الخطاب؛ دفعاً لهذا الإيهام، وليطابق الكلام مقتضى الحال .

الثالث – المحافظة على السمة الأصلية للكلام وهى الإيجاز، ذلك أن طريق الخطاب أوجز؛ فصيغة "وتوبوا" أخصر من صيغة "ويتوبوا" فالأولى كلمتان: الفعل الأمر وفاعله، والثانية ثلاث كلمات: لام الأمر المحذوفة والفعل المضارع وفاعله؛ من ثم كان الأول أنسب لسمت الكلام وطبيعته.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المسألة الخامسة- إيثار صيغة الفعل الأمر "وتوبوا" على المضارع المقرون بلام الأمر (ولتتوبوا" .

والجواب أن فى هذا الوجه خمسة معان :

الأول – المبالغة فى توكيد الأمر وتقريره وبيان أهميته، وحث المؤمنين على كمال العناية به، وذلك من ثلاث جهات: الأولى: الإشعار بمعنى تفاوت الصيغتين فى مرتبة الطلب، ونفى المساواة بينهما؛ إذ الفعل الأمر أعلى مرتبة فى الطلب من المضارع المقرون بلام الأمر، ومبعثه أن الأول أدخل وأقوى فى الطلب من الثانى من جهة أن الفعل الأمر يدل على طلب تحصيل الفعل بلا واسطة بخلاف المضارع فيدل عليه بواسطة لام الأمر؛ يشهد لذلك أنك لو حذفت لام الأمر من صيغة المضارع لذهبت دلالته على الطلب وصار الكلام خبراً لاطلباً؛ ولما كان ذلك كذلك كان الدال بذاته أقوى من الدال بغيره؛ من ثم كان (وتوبوا) أبلغ فى طلب التوبة وكمال العناية بها من (ولتتوبوا)؛ لهذا السبب. الثانية: أن الفعل الأمر متمحض للطلب بخلاف المضارع فليس كذلك. الثالثة: كون الفعل الأمر أقوى وأشد فى توجيه الخطاب من المضارع؛ لأن طول الثانى مشعر بمعنى التراخى فى الطلب .

الثانى – دفع توهم خلاف المعنى المراد، وبيانه أن التعبير بالمضارع مشعر بمساواة مرتبة الأمر بالتوبة بمرتبة الأوامر السابقة الواردة على صيغة المضارع فى قوله: "يغضوا، ويحفظوا.." على حين أن العدول إلى الفعل الأمر مشعر بكونه أعلى مرتبة منها فلو جاء الطلب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالمضارع لأفاد معنى التسوية بين الأفعال كلها فى المرتبة وذهب بالمعنى المسوق له الكلام وهو كون التوبة أعلى شأناً وأعظم خطراً من غيرها.

الثالث- التنبيه على أن ثمة تناسباً بين العمل والجزاء، بمعنى أن مجئ الطلب بصيغة الفعل الأمر الذى هو الأصل فى الطلب مناسب لمجئ الجزاء بصيغة الفلاح التى تدل على عموم الجزاء وشموله، وكأن الكلام بهذا يؤول إلى معنى: من أراد تحصيل الفلاح على أصله وبكل وجوهه فليأت بالتوبة كذلك، والعكس صحيح .

الرابع – التخفيف وتفادى الثقل، وذلك من جهتين: الأولى: تكرار التاء فى (ولتتوبوا) دونها فى (وتوبوا). الثانية: تكرار اللام فى المضارع وحرف الجر ولفظ الجلالة من قوله: "إلى الله" ثلاث مرات؛ مما يجعل الانتقال من الفعل الأمر إلى الجار والمجرور أخف وأيسر؛ إذ التخفيف معنى عول عليه البلاغيون كثيراً فى تراثهم وبينوا طرقه ومذاهبه .

الخامس – الإيجاز والاختصار، فالفعل الأمر أخصر فى الدلالة على الطلب من المضارع؛ وقد أكد البلاغيون على هذه الفائدة للفعل الأمر وحسبك أن تعلم أن الخليل قد اتخذ دلالة الفعل الأمر على الإيجاز أصلاً يقاس عليه فى منع دخول الألف واللام على النكرة المقصودة؛ اكتفاء بقصدك إلى المنادى فكأن قصدك إليه أغنى عن ذكر الألف واللام كما أغنى معنى طلب الفعل فى الفعل الأمر عن المضارع؛ لكون الأمر أوجز وأخصر، تأمل هذا المعنى فيما نقله سيبويه عن الخليل؛ إذ يقول: "وزعم الخليل رحمه الله) أن الألف واللام إنما منعهما أن يدخلا فى النداء من قبل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن كل اسم فى النداء مرفوع معرفة؛ وذلك أنه إذا قال: "يارجل ويافاسق" فمعناه كمعنى "ياأيها الفاسق، ويأيها الرجل" وصار معرفة؛ لأنك أشرت إليه، وقصدت قصده، واكتفيت بهذا عن الألف واللام، وصار كالأسماء التى هى للإشارة نحو: هذا، وماأشبه ذلك، وصار معرفة بغير ألف ولام؛ لأنك إنما قصدت قصد شىء بعينه، وصار هذا بدلاً فى النداء من الألف واللام، واستغنى بها عنهما كما استغنيت بقولك: "اضرب" عن "لتضرب"، وكما صار المجرور بدلاً من التنوين، وكما صارت الكاف فى "رأيتك" بدلاً من "رأيت إياك"، وإنما يدخلون الألف واللام؛ ليعرفوك شيئاً بعينه قد رأيته أو سمعت به فإذا قصدوا قصد الشىء بعينه دون غيره، وعنوه ولم يجعلوه واحداً من أمة فقد استغنوا عن الألف واللام؛ فمن ثم لم يدخلوها فى هذا، ولافى النداء"[1].

المسألة السادسة – دلالة الأمر فى قوله (تعالى) : "وتوبوا".

والجواب أنهم اختلفوا فى ذلك على مذهبين :

الأول: أنها حقيقية؛ إذ الغرض منه إنشاء التوبة من الذنوب وتحصيلها وهو مذهب القرطبى وأبى حيان وحجتهم فى ذلك أن المؤمن بنقصه الذى جبل عليه لايخلو من سهو أو تقصير فيقع فى الإثم؛ لذا فهو بحاجة إلى تحصيل التوبة على الدوام وفى كل حال، وهو مفاد كلام القرطبى فى قوله: "والمعنى: وتوبوا إلى الله؛ فإنكم لاتخلون من سهو أو

(١) الكتاب جـ٢/ ١٩٧، ١٩٨ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تقصير فى أداء حقوق الله تعالى؛ فلا تتركوا التوبة فى كل حال"[1] وتبعه أبو حيان فى ذلك[2].

الثانى: أنها مجازية، وهو مذهب الطبرى والزمخشرى فالأمر لايراد به تحصيل فعل التوبة؛ إذ الآية جاءت فى معرض خطاب المؤمنين الذين اعتنقوا الإسلام، ودعوتهم إلى تحصيل بعض الأفعال مما لم يكن موجوداً فى الجاهلية من غض البصر وحفظ الفرج وستر العورة والحجاب كما دل عليه قوله: "يغضوا..."، و"يحفظوا.." و"يغضضن" و"يحفظن" و"ليضربن"، والامتثال لهذه الأوامر فى حد ذاته توبة؛ إذ هو إقلاع عن المنكرات وعود إلى الطاعات وتكفير للذنوب؛ لأن الإسلام يجب ماقبله؛ فمعنى التوبة قائم بالانتقال من أعمال الكفر إلى أعمال الإيمان؛ فكان ذلك دليلاً على أن الأمر بالتوبة مرة أخرى فى قوله: "وتوبوا" خارج إلى معنى بلاغى هو حث المؤمنين على الدوام والاستمرار فى تحصيل الأفعال السابقة، وتهييج عواطفهم نحو الحرص عليها والتمسك بها، فمآل المعنى: استمروا واثبتوا على ماأنتم عليه من الإقلاع عن الذنوب والالتزام بالطاعات، وإلى هذا يشير الطبرى بقوله: "وقوله: "وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون" يقول (تعالى ذكره): ارجعوا أيها المؤمنون إلى طاعة الله فيما أمركم

(١) الجامع لأحكام القرآن جـ٧/ ٤٦٣٠ .

(٢) البحر المحيط جـ٨/ ٣٧ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ونهاكم من غض البصر وحفظ الفرج، وترك دخول بيوت غير بيوتكم من غير استئذان ولاتسليم، وغير ذلك من أمره ونهيه"[١].

وأما الزمخشرى فقد صرح بهذه الدلالة فى قوله: "فإن قلت: قد صحت التوبة بالإسلام والإسلام يجب ماقبله؛ فما معنى هذه التوبة؟ قلت: أراد بها مايقوله العلماء أن من أذنب ذنباً ثم تاب عنه يلزمه كلما ذكره أن يجدد عنه التوبة؛ لأنه يلزمه أن يستمر على ندمه وعزمه إلى أن يلقى ربه"[٢] وحذا حذوهما البيضاوى[٣] و أبو السعود[٤].

وإذا كان من المعلوم أن الأمر إذا وجه إلى مؤمن غير محصل للفعل نحو قوله (تعالى): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ...﴾[٥] فدلالته حقيقية، وإذا وجه إلى مؤمن محصل له نحو قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[٦] فدلالته مجازية، إذا كان ذلك كذلك ترجح عندى مذهب القرطبى ومن تبعه بحمل الأمر على حقيقته؛ لعلتين: الأولى: كون المسند إليه مقيداً بالتوكيد المعنوى فى قوله: "جميعاً"؛ مما يؤيد كون الخطاب لعموم المسلمين. لا لمن انتقلوا من الجاهلية إلى الإسلام فقط، وهذا يفضى إلى أن المراد تحصيل فعل التوبة لكل مؤمن اقترف ذنباً

(١) جامع البيان جـ١٨/ ٨٧١ .
(٢) الكشاف جـ٣/ ٧٣ .
(٣) أنوار التنزيل/٤٧٥ .
(٤) إرشاد العقل السليم جـ٦/ ١٧١ .
(٥) الحجرات. آية ١٢ .
(٦) النساء. آية ١٣٦ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهذا يفضى إلى أن المراد تحصيل فعل التوبة لكل مؤمن اقترف ذنباً ما، وهو مقترف إياه لامحالة؛ بنقصه – كما أشرت من قبل. الثانية: أن التعويل على المذهب الثانى وهو الدلالة المجازية يفضى إلى قصر الآية على فئة المؤمنين الذين انتقلوا من الجاهلية إلى الإسلام، والحق أنها موجهة إلى الجميع؛ إذ العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب.

المسألة السابعة: التعبير بمادة التوبة دون الإياب، والإنابة، والندم؛ إذ قال: "وتوبوا" ولم يقل: "،أوبوا، أو أنيبوا، أو اندموا".

والجواب أن فى إيثار مادة التوبة ثلاثة مقاصد: الأول – كونها أعم وأشمل فى حث المؤمنين على الرجوع إلى الله (تعالى)، وتفصيله أن الإياب موضوع للدلالة على الرجوع إلى منتهى القصد لايتجاوزه إلى رد الحقوق وعدم العودة إلى المعصية[1]، والإنابة موضوعة للرجوع إلى الطاعة[2]، والندم موضوع للدلالة على التحسر على الشىء دون اعتقاد قبحه[3] بخلاف التوبة حيث تشمل كل المعانى السابقة، فكل توبة إياب، وإنابة، وندم لاالعكس[4]؛ لذا كان التعبير بالتوبة أبلغ فى تحقيق الغرض المراد من الكلام. الثانى – تنبيه المؤمنين على انقيادهم إلى الله فى كل مقتضيات التوبة. الثالث: المحافظة على حسن النظم؛ بتواءم مادة التوبة

(١) الفروق اللغوية/ ٢٥٠ .
(٢) أساس البلاغة جـ٢/ ٤٧٩ .
(٣) الفروق اللغوية/ ١٩٥ .
(٤) لسان العرب جـ٦/ ٤٥٤ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مع سمة الإجمال التى بنى عليها الكلام؛ ومبعث هذا التواءم جهات عدة: الأولى: تناسب حروف الفعل (توبوا) فى الضم، وهو مشعر بامتداد واستمرار التوبة الذى هو المقصود الأصلى من الآية بخلاف المواد الأخرى؛ لاختلاف حروفها فى الحركات فلا تشعر بهذا المعنى. الثانية: تناسب فعل التوبة مع لفظ الجلالة من الجهتين المعنوية واللفظية، فأما المعنوية فالتوبة تستقطب دلالتها كل الضوابط اللازمة لصحتها، ولفظ الجلالة تستقطب دلالته كل معانى الأسماء والصفات، وأما اللفظية فاتفاق حروفهما فى صفة التفخيم، وفى هذا التناسب بينها وبين لفظ الجلالة تنبيه المؤمنين على أن الله المعظم فى ذاته وأسمائه المنزه عن النقصان خليق بالعلاقة الإنسانية الطاهرة البريئة من العيوب والآفات .

الثالثة: تناسب التوبة مع الفلاح فى الأمرين – أيضاً – المعنوى واللفظى؛ وفيه إشعار بأن الجزاء من جنس العمل وأنه مساو له فى المرتبة؛ فكأن الكلام يؤول إلى معنى"إذا كان الفلاح وهو أعلى مراتب السعادة فى الدارين؛ فإنه لاينال إلا بأعلى مراتب العبادة وهى الإقلاع عن المعاصى وفعل الطاعات، والعزم على عدم العودة إلى مايضاد هذا الجزاء العظيم .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المسألة الثامنة – التعبير عن المسند إليه بالضمير فى قوله : "وتوبوا" .

والجواب أن الفائدة من ذلك الإيجاز والتخفيف؛ إذ عبر عن جميع أفراد المؤمنين بحرف واحد هو واو الجماعة؛ والإيجاز معنى كامن فى ذوات الضمائر المتصلة والمنفصلة وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة وماإليها من الأسماء التى يستغنى بها عن عشرات وآلاف الكلمات التى تستقطب أطراف المعنى؛ لذا كانت هذه الفائدة اللفظية معتبرة فى كل المقامات لاتختص بمقام دون آخر .

وقد أفادوا أن منشأ هذا الإيجاز من وجهين: الأول – ماذكره سيبويه من أن الطريق الأصلى فى التعبير عن المضمر المرفوع هو الضمير المنفصل (أنتم) فكان من مذاهب العرب أن عدلوا عنه إلى الضمير المتصل المبنى على حرف واحد وهو واو الجماعة وجعلوه علامة على المنفصل؛ إيجازاً وتخفيفاً يقول: "واعلم أن المضمر المرفوع إذا حدث عن نفسه فإن علامته (أنا) وإن حدث عن نفسه وعن آخر قال: "نحن"، وإن حدث عن نفسه وعن آخرين قال: "نحن" ولايقع (أنا) فى موضع التاء التى فى: فعلت لايجوز أن تقول: "فعل أنا"؛ لأنهم استغنوا بالتاء عن (أنا) ولايقع (نحن) فى موضع (نا) التى فى: فعلنا. لاتقول: "فعل نحن" وأما المضمر المخاطب فعلامته إن كان واحداً: أنت، وإن خاطبت اثنين فعلامتهما: أنتما، وإن خاطبت جميعاً فعلامتهم: أنتم واعلم أنه لايقع (أنت) فى موضع التاء فى فعلت، ولاأنتما فى موضع (تما) التى: فى فعلتما.... فأنا، وأنت، ونحن، وأنتما، وأنتم، وأنتن، وهو، وهى، وهما، وهم، وهن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لايقع شيء منها فى موضع شيء من العلامات مما ذكرنا، ولافى موضع المضمر الذى لاعلامة له؛ لأنهم استغنوا بهذا فأسقطوا ذلك"[1].

الثانى – ماأشار إليه الكفوى من أن فى التعبير بالحرف الواحد – واو الجماعة – استغناء عن الاسم الظاهر "المؤمنون" المؤلف من ثمانية حروف، وهو أيضاً من وجوه كلام العرب التى يلازمها معنى الإيجاز، فجميع الضمائر التى يستعاض بها عن الأسماء الظاهرة إنما تفيد بوضعها إيجاز القصر؛ فمن هذه الجهة كان الضمير أبلغ من الاسم الظاهر (المؤمنون). وماأحسن أن تتأمل كلام الكفوى فى هذا الصدد إذ يقول: "الاختصار. وهو عرفا تقليل المبانى على إبقاء المعانى أو حذف عرض الكلام وهو جل مقصود العرب، وعليه مبنى أكثر كلامهم، ومن ثمة وضعوا الضمائر؛ لأنها أخصر من الظواهر، خصوصاً ضمير الغيبة، فإنه فى قوله (تعالى): ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً﴾[2]، قام مقام عشرين ظاهراً – كما قال بعض المحققين –"[3]. فلهذين السببين كانت بلاغة التعبير عن المسند إليه فى (تويوا) بواو الجماعة .

المسألة التاسعة – خروج الكلام عن مقتضى الظاهر فى قوله: "وتوبوا"؛ إذ وجه الأمر بالتوبة إلى الذكور دون الإناث وكان الظاهر أن يعمهما الخطاب؛ لوجوبها على النوعين؛ بدليل أن الأوامر

(١) الكتاب جـ٢/ ٣٥٠- ٣٥٢ .
(٢) الأحزاب: آية٣٥ .
(٣) الكليات/ ٦٠ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والنواهى السابقة وجهت إليهما معاً فقال فى شأن الرجال: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾(١). وفى شأن النساء: " ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ الآية(٢).

والجواب أن الأمر بالتوبة ليس مقصوراً على الرجال فقط – كما يوهمه ظاهر اللفظ – ولكنه عام للنوعين، بيد أن الكلام جاء على طريق تغليب الذكور على الإناث. والمغزى من ذلك توكيد الأمر بالتوبة فى نفوس النساء وسوقه إليهن بصورة برهانية؛ ذلك أن الرجال مقدمون فى الخلق عليهن- كما يشهد له خلق أبينا آدم – والنساء فرع مخلوق من الرجال – كما يشهد له خلق أمنا حواء من ظهر آدم – فإذا وجه الخطاب إلى الرجال كان ذلك دليلاً على شموله النساء من باب أولى إلا ماجاء النص عليه بالتخصيص فى الأمور الخاصة بهن. وهذا ملحظ عجيب ودقيق تنبه إليه سيبويه بعبقريته المعهودة؛ تأمل قوله: "واعلم أن المذكر أخف عليهم من المؤنث؛ لأن المذكر أدل وهو أشد تمكناً، وإنما يخرج

(١) النور. آية ٣٠.
(٢) السورة. آية ٣١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التأنيث من التذكير؛ ألا ترى أن الشيء[1] يقع على كلها أخبر عنه من قبل أن يعلم أذكر هو أم أنثى؟ والشيء ذكر"[2].

وأعظم بها من لفتة سبق إليها سيبويه ولم نر مثلها عند اللاحقين ومأكثر إشاراته الرائعة التى حفل بها كتابه والتى تشهد بوضعه فى صدارة الطبقة الأولى من طبقات البلاغيين وحسبه فى ذلك أن أثره فى اللاحقين ظاهر، جلى؛ ولعظم شأنه فى هذا المضمار ودقة ملاحظاته لم يعرض لها إلا فحول اللغويين من أمثاله كأبى على الفارسى وابن جنى وعبد القاهر وغيرهم؛ لهذا يظل كتابه كنزاً يحتاج إلى من يخرج خباياه وأسراره .

هذا ويمكن حمل الكلام فى هذا الوجه على ظاهره بأن يكون الأمر مخصوصاً بالرجال فقط ويكون النظم مبنياً على الإيجاز بحذف جملة أمر النساء بالتوبة؛ إذ كان مقتضى القياس على ماسبق تخصيص كل بأمر، حيث قال فى حق الرجال: "قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم.." وفى حق النساء: "وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن..." أن يخص النساء - أيضاً بالخطاب فيقول: "وتبن إلى الله جميعاً أيتها المؤمنات لعلكن تفلحن"، إلا أنه حذفه؛ تعويلاً على القرينة اللفظية؛ فإن دعوة النوعين إلى الإقلاع

---

(١) مراد سيبويه أن كلمة (الشيء) مذكر وقد أطلقها القرآن على النوعين قبل خلقهما فقال: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ الذاريات. آية ٤٩؛ فدل ذلك على أن الذكر مغلب على الأنثى، وأنه أصل والأنثى فرع منه .

(٢) الكتاب جـ١/ ٢٢ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عن الذنوب المذكورة يوجب كون التوبة لازمة فـــى حقهمـــا، والقرينـــة المعنوية؛ إذ من المعلوم أن النوعين مجبولان على النقص؛ فاقتضى ذلك حاجة الاثنين إلى التوبة. والمعنى فى الحذف الدلالة على شهرة وجـــوب التوبة فى حق النساء وأنه بلغ حداً من الظهور يعلمه الجميع فلا يحتاج إلى ذكر؛ ويشهد لهذا المعنى مادلت عليه الأحاديث من كون النساء أكثر ذنوباً من الرجال، فعن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى -ﷺ- قـــال: "يامعشر النساء تصدقن، وأكثرن من الاستغفار؛ فإنى رأيتكن أكثر أهـــل النار" قالت امرأة منهن: "مالنا أكثر أهل النار؟ قال: "تكثرن اللعن، وتكفرن العشير، مارأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذى لـــب مـــنكن" قالـــت: "ماتقصان العقل والدين؟" قال: "شهادة امرأتين بشهادة رجل، وتمكث الأيام لاتصلى"[1]، وعن ابـــن عباس وعمران بن الحصين -ﷺ- عن النبى -ﷺ- قال: "اطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها النساء"[2].

فليس من شك فى أن هذا يدل على أن وجوب التوبة فـــى حقهـــن أوجب وأشهر .

ولايخفى عليك أن الكلام على الوجهين (التغليـــب وعدمـــه) يفيـــد الإيجاز الذى هو السمة الخاصة بالآية .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى جـ١/ ٣٤٣ كتاب الإيمان باب ٣٤ .

(٢) المصدر جـ٩/ ٦٢ كتاب الرقاق حديث رقم ٢٧٣٧ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وبعد فإن الحمل على الحذف أبلغ؛ لثلاثة أسباب: الأول: أن الحمل على الظاهر أولى لعدم حاجته إلى تأويل وصرف عن الظاهر. الثاني: شهادة السياق بحاجة النوعين إلى توجيه الأمر إليهما بالتوبة كل على حدة.

الثالث: كون تخصيص كل بالخطاب أوكد فى الدعوة إلى التوبة من طريق الإجمال فى التغليب .

المسألة العاشرة- تقييد الأمر بالجار والمجرور (إلى الله) :

والجواب أن مقتضى القرينة العقلية أن يحذف القيد فيقال: "وتوبوا جميعاً..."؛ لأنه من المجزوم به شرعاً وعقلاً وعرفاً أن التوبة لاتكون إلا لله المخصوص بالعبادة المالك لغفران الذنوب، إلا أنه آثر الذكر على الحذف؛ لفائدتين:

الأولى – المبالغة فى تقرير الأمر بالتوبة وترسيخه فى نفوس المؤمنين بوجه أوكد وذلك من طريقين: الأول: الإعلام به عن طريق لفظه بعد الإعلام به عن طريق القرينة؛ فيصير ذكره بمنزلة التكرار؛ للتثبيت والتقوية وسد باب الشك والإنكار .

الثانى: التصريح بلفظ الجلالة؛ مما يثير فى نفوس المؤمنين عاطفة التخويف من المخالفة، ويدفعهم إلى سرعة امتثال الأمر وتحصيله مما لاتراه فى حالة الحذف؛ فكأن النظم يؤول إلى معنى قوله: "احرصوا على طاعة الأمر بتحصيل التوبة ولاتخالفوا إلى الأعظم؛ إذ لاطاقة لكم بعقابه" ولاشك أن فى التكرار والتخويف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إيذاناً بعلو شأن التوبة وحث المؤمنين على الحرص عليها وكمال العناية بها. الثانية – تحريض المؤمنين على إخلاص التوبة لله والإشعار بأن الفلاح الموعود به لاينال إلا إذا ابتغى بالتوبة وجه الله ليس إلا؛ فكأن مآل المعنى: لن تنالوا السعادة فى الدارين بالتوبة إلا إذا تمحضت للإله الأعظم كما تمحضت العبادة. فتلك فائدتان لاتراهما فى مجىء الكلام على حذف القيد هكذا: "وتوبوا جميعاً أيه المؤمنون لعلكم تفلحون" .

المسألة الحادية عشرة – إيجاز بحذف مضاف فى قوله : "وتوبوا إلى الله" ؛ إذ الأصل "وتوبوا إلى طاعة الله" ؛ بدليل أن الرجوع إلى الطاعة لاإلى ذات الله (جل شأنه) .

والجواب أن فى هذا الوجه إشعاراً بتعظيم شأن التوبة وتفخيم منزلتها بالتنبيه على أن الذى يعود إلى الطاعة هو فى الحقيقة يعود إلى المعبود الحق، وأى فضل أعظم من أن تتعلق بمصدر الخير كله؟ فاللجوء إلى التوبة لجوء إلى المخصوص بها من باب أولى، فكن مع الله بالتوبة يكن الله معك بالفضل والرحمة. ويؤيد هذا المعنى مجيئه مصرحاً به فى الحديث القدسى الشريف الذى رواه أبو هريرة عن رسول الله -ﷺ- أنه قال: "إن الله (تعالى) قال: "من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب، وماتقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضت عليه، ومايزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى أعطيته، ولئن استعاذنى لأعيذنه"[1] فقد بين أن التقرب إلى الله بتحصيل الفرائض والإكثار من النوافل هو الوسيلة إلى الفوز بمعية الله ورحمته، والتوبة أول الأبواب لتحقيق تلك المنزلة .

المسألة الثانية عشرة – وقوع الظاهر موقع المضمر فى قوله (تعالى): "وتوبوا إلى الله"؛ إذ عبر بلفظ الجلالة دون الضمير فلم يقل: "وتوبوا إلى".

والجواب أن النظم يحتمل وجهين:

الأول – كونه التفاتاً على مذهب السكاكى فى عدم اشتراط سبق طريق مخالف للمذكور؛ وعليه يكون قد عدل عن مقتضى الظاهر وهو مقام التكلم إلى خلافه وهو مقام الغيبة. وتكمن بلاغة النظم على هذا الوجه فى أن فيه ارتقاء وإمعاناً فى تقرير الأمر بالتوبة والحث عليها بوجه أبلغ؛ لما فى لفظ الجلالة من مزايا ثلاث: الأولى: أنه خاص بالذات العلية فى حين أن الضمير مشترك بين كل الذوات. الثانية: أنه موضوع للدلالة على الذات والصفة فى حين أن الضمير موضوع للذات فقط. الثالثة: أن لفظ الجلالة فيه ترهيب المخاطبين من المخالفة مما لايفيده

(١) صحيح البخارى بحاشية السندى جـ٤ / ١٢٩ كتاب الدعوات (باب التواضع). فتح البارى جـ١١/ ٤٠٠ حديث رقم ٦٥٠٢، شرح مشكاة المصابيح المسمى: "الكاشف عن حقائق السنن" جـ٤/٣٢٦، ٣٢٧ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الضمير؛ فلما كان ذلك كذلك صار طريق الغيبة أدخل فى الحث على الأمر وأدعى إلى الإسراع إليه وتحصيله .

الثانى – وقوع الظاهر موقع المضمر. وفيه مافى الأول من المزية إلا أن نبرة الالتفات أعلى مرتبة وأقوى تأثيراً؛ إذ فيه تجسيد حث المؤمنين على الإعراض عن كل ذات مجردة عن صفة الألوهية والإقبال بالكلية على الذات المخصوصة بها؛ فالعبرة بالصفات لا بالذوات .

المسألة الثالثة عشرة – إيثار لفظ الجلالة فى قوله : "وتوبوا إلى الله" على غيره من الأسماء والصفات .

والجواب أن فى التعبير بلفظ الجلالة حكمتين:

الأولى: المبالغة فى تعظيم شأن التوبة وتقريرها فى نفوس السامعين بوجه أوكد؛ ومرد هذه المبالغة إلى بواعث عدة: الأول: تفرد لفظ الجلالة بخصائص لاتوجد فى غيره أفاض علماء العقيدة فى تفصيلها منها أنه أعم الأسماء والصفات؛ فالإخبار به يعنى من باب أولى الإخبار بجميع الأسماء الحسنى؛ إذ هى منه بمنزلة مسوغات الألوهية فلا يستحق هذه الصفة إلا من ملك وسائلها وهو الخالق الذى لاشريك له؛ فقوله: "توبوا إلى الله" يؤول إلى معنى: "وتوبوا إلى الله الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام..." إلى آخر الأسماء الحسنى. وهو ملحظ دقيق نبه إليه أبو حامد الغزالى فى قوله: "اعلم أن هذا الاسم أعظم الأسماء التسعة والتسعين؛ لأنه دال على الذات الجامعة لصفات الألوهية كلها حتى لايشذ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

منها شيء وسائر الأسماء لاتدل آحادها إلى على آحاد المعانى من علم أو قدرة أو فعل أو غيره"[1].

فإذا ثبت لديك ذلك ثبت بما لايدع مجالاً للشك أن قوله: "وتوبوا إلى الله" أوكد وأدخل فى إثارة المخاطبين نحو الامتثال للتوبة وكمال العناية بها وتخويفهم مما لو قيل: "وتوبوا إلى الرحمن أو الرحيم أو الملك أو القدوس..."؛ لما بينهما من فرق كبير فى مرتبة التأثير. ومنها أنه اسم خاص بالذات العلية يليه اسم (الرحمن) بخلاف الأسماء الأخرى فهى شركة بين الخالق والمخلوق. يقول الرازى: "هذا الاسم ماأطلق على غير الله(تعالى)؛ فإن العرب كانوا يسمون الأوثان آلهة إلا هذا الاسم؛ فإنهم ماكانوا يطلقونه على غير الله (سبحانه وتعالى)؛ والدليل عليه قوله: (تعالى): ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾[3] معناه هل تعلم من اسمه الله سوى الله؛ ولما كان هذا الاسم فى الاختصاص بالله (تعالى) على هذا الوجه وجب أن يكون أشرف أسماء الله سبحانه وتعالى"[4].

فمن هذه الجهة صار التعبير بلفظ الجلالة أبلغ .

---

(١) المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى/ ٣٣ .
(٢) الزخرف. آية ٨٧ .
(٣) مريم. آية ٦٥ .
(٤) لوامع البينات/ ٩١ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وثمة خصائص أخرى ليس هذا موضعها فمن أراد المزيد فليرجع إليها فى مظانها فى كتب العقيدة وشروح الأسماء والصفات[1].

الثانية: الإيجاز؛ من جهة أن التعبير بلفظ الجلالة يدل على إثبات جميع مافى الأسماء الحسنى؛ وبذلك يكون قد عبر بكلمة واحدة عن التسعة وتسعين كلمة اللازمة للتعبير عن معانيها .

(١) ينظر فى ذلك: المقصد الأسنى لأبى حامد الغزالى/ ٣٣، ٣٤، الكشاف للزمخشرى جـ١/ ٦، لوامع البينات للفخر الرازى/ ٩١-٩٦ == == شرح الأسماء الحسنى لابن القيم/ ٨٧، معنى (لاإله إلا الله) لبدر الدين الزركشى/ ١٠٥-١٢٢، التعريفات للسيد الجرجانى/ ١٩، الكليات للكفوى/ ٥٢.

ومن الحسن أن أذكر لك نصين من أقوالهم فى هذا الشأن؛ لروعتهما وجدواهما فيما نحن فيه من بلاغة التعبير بلفظ الجلالة هما لبدر الدين الزركشى. الأول قوله: "اسم الله (سبحانه) علم واجب لذاته الذى تفرد به (تعالى) فلم يجعل لغيره شركة فى لفظه كما لم يكن لأحد شركة فى معناه) معنى لاإله إلا الله ١٠٥ والثانى عن إخراج لفظ الجلالة من باب مراتب المعارف إذ يقول: "وهو أيضاً مستثنى من الخلاف فى أن (أى المعرفتين أعرف)؛ ولذلك قال سيبويه: "اسم الله تعالى أعرف المعارف" وروى أنه رئى فى المنام وقد نال خيراً كثيراً بهذه الكلمة" المصدر/ ١٠٦ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المسألة الرابعة عشرة – حذف المتعلق الثانى لفعل التوبة وهو (من ذنوبكم) ؛ إذ قال : "وتوبوا إلى الله جميعاً". ولم يقل : "وتوبوا إلى الله جميعاً من ذنوبكم" .

والجواب أنه حذفه؛ للعلم به عن طريق القرينة العقلية؛ فمعلوم أن التوبة إلى الله لاتكون إلا من الذنوب. وآثر حذفه على ذكره؛ لفائدتين :

الأولى: العموم والشمول لكل مامن شأنه تعلق فعل التوبة به من أنواع الذنوب؛ فتذهب النفس فيه كل مذهب. ولو ذكر القيد وقيل: "وتوبوا إلى الله جميعاً من ذنوبكم" لأوهم النظم خلاف المعنى المراد وهو أن الأمر بالتوبة مقصور على الذنوب السابقة من عدم الاستئذان والنظر وعدم حفظ الفرج وإبداء الزينة دون غيرها؛ فيؤول الكلام إلى معنى "وتوبوا إلى الله جميعاً من ذنوبكم السابقة) وليس مراداً؛ إذ الأمر بالتوبة متعلق بكل الذنوب التى يتأتى وقوعها من البشر؛ لهذا المعنى جاء المتعلق محذوفاً؛ دفعاً لما قد يوهم خلاف الغرض المسوق له الكلام .

الثانية: التلطف فى الخطاب بترغيب المخاطبين فى التوبة، واستمالة قلوبهم إياها؛ ووجهه أن التصريح بالمتعلق فى الأمر بالتوبة فيه مجابهة لهم بذنوبهم؛ مما قد يدفعهم إلى النفور والإعراض بخلاف الحذف؛ فهو أدعى إلى الإنصات والقبول. والجدير بالذكر أن التلطف أسلوب يستعمل كثيراً فى خطاب العاصين والمخالفين. ومنه قوله (تعالى): ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾[1] وقوله: ﴿إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئا ولا ينقذون﴾[2].

ومن أجل هاتين الفائدتين جاء هذا المتعلق محذوفاً فى جميع مواطن الأمر بالتوبة فى القرآن الكريم وهى مع آية النور ستة: قوله (تعالى): ﴿وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم﴾[3] الآية. وقوله على لسان نبى الله هود: ﴿ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا﴾[4] الآية. وقوله على لسان نبى الله صالح: ﴿فاستغفروه ثم توبوا إليه﴾[5] وقوله على لسان نبى الله شعيب: ﴿واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه﴾[6] وقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا...﴾[7].

---

(١) سبأ. الآية ٢٤ .

(٢) يس. الآية ٢٣ .

(٣) هود. آية ٣ .

(٤) السورة. آية ٥٢ .

(٥) السورة آية ٦١ .

(٦) السورة. آية ٩٠ .

(٧) التحريم. آية ٨ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المسألة الخامسة عشرة- تقديم الجار والمجرور (إلى الله) على التوكيد (جميعاً) دون العكس؛ إذ قال: "وتوبوا إلى الله جميعاً" ولم يقل: "وتوبوا جميعاً إلى الله".

والجواب أنه آثر هذا الوجه؛ لثلاثة فوائد: الأولى: معنوية وهي قصر أمر جميع المؤمنين بالتوبة على كونه لله دون كل من عداه قصراً حقيقياً تحقيقياً؛ فأما كونه حقيقياً فلأن المراد إثبات التوبة لله ونفيها عن جميع من عداه، وأما كونه تحقيقياً فلأن الواقع كذلك. وهو من باب قصر الصفة على الموصوف؛ فمآل المعنى: ارجعوا جميعاً إلى الله ولاترجعوا إلى غيره. والمغزى من القصر تنبيه المؤمنين إلى توقف الفلاح في الدارين على إخلاص التوبة لله تعالى وحده، ولو جاء الكلام على الوجه الآخر فقال: "وتوبوا جميعاً إلى الله" لفسد الغرض المسوق له الكلام وهو تمحض التوبة لله وأفاد إشراك غير الله معه في الفعل؛ لأن النظم والحال كذلك يثبت التوبة لله ولاينفيها عن غيره؛ لذا كان اللفظ على النحو المذكور مطابقاً لمقتضى الحال على حد قوله: (تعالى): ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1] ويلزم عن دلالة التقديم على القصر بالضرورة دلالته على الاهتمام بالذات العلية.

الثانية – لفظية: وهي الإيجاز؛ إذا استغنى بجملة واحدة في الدلالة على الإثبات والنفي عن جملتين فلو جاء بالكلام على أصله لقال: "وتوبوا

(١) الفاتحة آية ٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جميعاً إلى الله ولاتتوبوا إلى غيره"؛ فمن هذه الجهة كان اللفظ المذكور أوجز .

الثالثة- لفظية (أيضاً) وهى المحافظة على حسن النظم؛ بما يفيده تقديم الجار والمجرور من التخفيف بسهولة الانتقال من الباء المضمومة فى الفعل (توبوا) إلى الهمزة المكسورة فى حرف الجر (إلى)، ومن الهاء المكسورة فى لفظ الجلالة إلى الجيم المفتوحة فى (جميعاً)؛ ومبعث هذه السهولة بعد المسافة بين مخارج هذه الحروف فالباء تخرج من الشفة والهمزة من أقصى الحلق، والهاء كذلك والجيم من اللسان بخلاف مالو قيل: "وتوبوا جميعاً إلى الله"؛ فإن ذلك الحسن يزول بصعوبة الانتقال من مخرج الباء إلى مخرج الجيم، ومن مخرج العين إلى مخرج الهمزة، ومن مخرج الهاء إلى مخرج الهمزة؛ لقرب المسافة بين مخارج هذه الحروف أو اتحادها فى مخرج واحد - كما فى الانتقال من هاء لفظ الجلالة إلى همزة المنادى فى (أيه المؤمنون) .

وقد يقال: إن تجاور الحروف المتحدة فى المخرج قد جاء فى قوله (تعالى): ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾[1]. من كلمة واحدة؛ فما الذى سوغه فى هذا الموضع؟ أقول: إن هذا التجاور اقتضاه الغرض المسوق له الكلام وهو

(١) يس آية ٦٠ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تقرير المجرمين يوم القيامة وتوبيخهم على اتباعهم الشيطان وعصيانهم الرحمان وهو مقام يفتقر إلى قوة الخطاب المناسبة لمعنى التقرير والتبكيت وكلمة (أعهد) بهذا التجاور فى خروج الهمزة والعين والهاء من مخرج الحلق تشعر بالإمعان فى هذه القوة وتتواءم مع شدة الخطاب؛ إذ الآخرة دار جزاء فالمناسب للحديث مع المجرمين يومئذ منهج القوة والشدة على خلاف ما نحن فيه من دعوة المؤمنين إلى التوبة فى الدنيا؛ إذ هى دار دعوة وعمل فالمناسب للحديث معهم اللين واليسر، وهو ما اقتضاه مجئ النظم فى ترتيب لبناته على النسق المذكور .

المسألة السادسة عشرة – تقييد المسند إليه بكلمة (جميعاً) فى قوله: "وتوبوا إلى الله جميعاً) .

والجواب أن بلاغة هذا القيد يعول فيها على إعرابه؛ فقد اختلفوا فى ذلك على مذهبين: الأول: يعرب توكيداً معنوياً للمسند إليه فى "وتوبوا" والمعنى (ليتب كل فرد من المؤمنين دون استثناء فلا يتخلف أحد) وهو مذهب ابن جنى[1]، ومحمد الماتريدى[2]، والزمخشرى[3] ومن حذا حذوهم، والمغزى من التوكيد إفادة عموم فعل التوبة لكل أفراد المؤمنين، ودفع ...

---

(١) الخصائص جـ٣/ ١٠٥، ١٠٦ .

(٢) تأويلات أهل السنة جـ١/ ١٣٠ .

(٣) الكشاف جـ١/ ٢٠٦ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خلافه؛ إذ لو قيل (وتوبوا إلى الله) بدون القيد فقد يتوهم أن الأمر للأكثر فقط على أن الكل قد يطلق على الأكثر؛ تسامحاً وقد سماه ابن أبي الأصبع[1] الاحتراس وهو في الواقع مأخوذ من تسمية ابن جني له بالاحتياط، وذهب الطاهر بن عاشور إلى أن المعنى في القيد إفادة عموم التوبة للمؤمنين والمؤمنات ودفع ما قد يوهمه التغليب من قصورها على الرجال يقول: "ونبه بقوله: "جميعاً" على أن المخاطبين هم المؤمنون والمؤمنات، وإن كان الخطاب ورد بضمير التذكير على التغليب"[2]، والحق أن ماذهب إليه لا وجه له البتة؛ إذ يلزم على كلامه ذكر التوكيد في كل مواقع تغليب الذكور؛ والوارد خلافه كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾[3] وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ﴾[4] وغيرها كثير مما لم يذكر فيه القيد؛ من ثم لا يعتد برأيه؛ إذ لا أساس له من الصحة. والثاني: يعرب حالاً من المسند إليه. والمعنى: توبوا إلى الله مجتمعين على هذا الحال، وهو مذهب ابن

(١) بديع القرآن/ ٢٢١، ٢٢٢.
(٢) التحرير والتنوير جـ١٨/ ٢١٤.
(٣) الأحزاب. آية ٧٠.
(٤) الحجرات. آية ١٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عطية[1] وحجته أن (جميعاً) ليس مصدراً ولااسم فاعل ولكن عوض عنهما، وتبعه الأنبارى[2] فى ذلك.

وقد ذهب أبو السعود[3] مذهباً وسطاً مفاده أنه حال فى اللفظ توكيد فى المعنى؛ فمن جعله توكيداً عبر بالغرض منه ومن جعله حالاً عبر بموقعه الإعرابى، وهو مذهب معتدل يزول به الخلاف، ويطابق الغرض المسوق له الكلام وهو عموم التوبة لكل أفراد المؤمنين بلا استثناء.

(١) المحرر الوجيز جـ١/ ٢٤٦.
(٢) البيان فى غريب إعراب القرآن جـ١/ ٧٥.
(٣) إرشاد العقل السليم جـ١/ ٩٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المسألة السابعة عشرة- اقتران الأمر بالنداء؛ إذ قال: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ..﴾ دون ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

والجواب أنه آثر ذكر النداء مع دلالة السياق عليه فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾(١). وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا...﴾(٢). وقوله: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾(٣). وقوله: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾(٤). آثر ذكره على حذفه؛ لثلاثة معان: الأول: الإيذان بتعظيم أمر التوبة، وإظهار التفاوت بينها وبين التوجيهات السابقة فى المرتبة؛ ذلك أن كل توجيه فيماسبق يختص بواحد من التكاليف الشرعية على حين أن الحث على التوبة شامل لجميعها؛ لذا اقتضى الحال تكرار النداء؛ مبالغة فى سمو مكانتها؛ وحثا على كمال العناية بها. وإلى هذا المعنى يشير أبوالسعود بقوله: "وفى تكرير الخطاب بقوله: "أيها المؤمنون" تأكيد للإيجاب، وإيذان بأن وصف الإيمان موجب للامتثال حتما"(٥).

---

(١) النور. آية ٢١.
(٢) السورة. آية ٢٧.
(٣) السورة. آية ٣٠.
(٤) السورة. آية ٣١.
(٥) إرشاد العقل السليم، جـ١٧١/٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ونقل الألوسى لفظه دون عزو إليه[1]، ومثل هذا كثير عند الألوسى مماليس هذا موضعه. الثانى: الارتقاء فى مدح المؤمنين وتجسيد رضا الخالق عنهم بكثرة إقباله عليهم بالنداء بهذه الصفة الحميدة وكان المعنى: إن من أراد إقبال الله عليه وكثرة رضاه عنه سارع إلى الإقبال عليه بالإقلاع عن الذنوب والرجوع إلى الطاعات والاستقامة على طريق الهداية. الثالث: الإشعار بتقرير حاجة المؤمنين إلى التوبة وأن كونهم مؤمنين لايحول دون افتقارهم إليها؛ تطهيرا لقلوبهم من شوائب المعاصى وآثار الذنوب.

المسألة الثامنة عشرة- بلاغة التعبير بـ(يا).

والجواب أن فى استعمالها فائدتين: الأولى معنوية: وهى تنبيه المؤمنين إلى أهمية الأمر بالتوبة وحثهم على الإقبال عليها ومزيد العناية بها[2]. الثانية لفظية: وهى الإيجاز؛ بوقوع (يا) موقع (أريد) أو (أدعو) ذلك أن المنادى فى الأصل مفعول به لفعل محذوف تقديره (أريد) أو (أدعو)؛ فلما كثر استعمال الفعل فى كلامهم حذفوه واستعاضوا عنه بحرف (يا)؛ تخفيفا وإيجازا؛ فقوله (تعالى): "آيها المؤمنون" فى حكم (أريد المؤمنين)؛ إلا أن الأول أوجز وأخصر، وقد استدل العلماء على وقوعها موقع الفعل بقول العرب: "يا إياك" فالمعنى: يا إياك أعنى فحذفوا الفعل (أعنى) وصار (يا) بدلا من اللفظ بالفعل؛ وهذا التوجيه من بنات

(١) روح المعانى، جـ ١٠/٢١٦/١.
(٢) الكشاف جـ١/٤٤.

أفكار سيبويه التى سبق إليها وكان اللاحقون عيالا عليه فى ذلك يقول: "ومما ينتصب فى غير الأمر والنهى على الفعل المتروك إظهاره قولك: "ياعبدالله" والنداء كله.... حذفوا الفعل؛ لكثرة استعمالهم هذا فى الكلام وصار (يا) بدلا من اللفظ بالفعل كأنه قال: "يا أريد عبدالله" فحذف (أريد) وصارت (يا) بدلا منها؛ لأنك إذا قلت: "يافلان" علم أنك تريده؛ ومما يدلك على أنه ينتصب على الفعل، وأن (يا) صارت بدلا من اللفظ بالفعل قول العرب: "يا إياك" إنما قلت: "يا إياك أعنى"، ولكنهم حذفوا الفعل وصار (يا) و(أيا) و(أى) بدلا من اللفظ بالفعل"[1].

المسألة التاسعة عشرة- حذف (يا) فى قوله: "أيها المؤمنون".

والجواب أن وراء هذا الوجه معنيين: الأول: تعظيم شأن المؤمنين؛ لأن فى حذف حرف النداء إشعارا بأنهم قريبون من الله بإيمانهم، فلما كانوا كذلك استحقوا قرب الله منهم، وتشريفهم بالإقبال عليهم. الثانى: المحافظة على استقامة النظم؛ من جهة أن حذف (يا) مفض إلى سهولة الانتقال من تنوين العين فى (جميعا) إلى الهمزة فى (أيه) بخلاف مالو ذكر فقال: "وتوبوا إلى الله جميعاً يا أيها المؤمنون"؛ إذ يحدث ثقلا؛ بالانتقال من تنوين العين فى (جميعا) إلى فتح الياء من حرف النداء.

(١) الكتاب جـ١/٢٩١، شرح كتاب سيبويه للسيرافى جـ١/١٥١، ١٥٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المسألة العشرون- مجئ (يا) على خلاف الظاهر بوقوعها موقع الهمزة ودخولها على المنادى القريب.

والجواب أن الأصل فى (يا) الدخول على المنادى البعيد، ولما كان المؤمنون قريبين من الخالق كان مقتضى الظاهر أن ينادوا بأداة القريب فيقال: " أيه المؤمنون"، لكنه عدل إلى (يا)؛ تنزيلا لهم منزلة المنادى البعيد؛ إيذانا بأنهم بفعل الذنوب بعيدون عن ربهم وإن كانوا قريبين منه بذواتهم فكأن مآل المعنى: "إن معيار القرب والبعد من الله (تعالى) إنما يعول فيه على الأعمال والسلوكيات لا على الأجساد والذوات" فالبشر جميعاً وإن كانوا قريبين من الله بذواتهم على حد قوله (تعالى): "ونحن أقرب إليه من حبل الوريد" إلا أنهم يتفاوتون فى مراتبهم عند الله بأعمالهم؛ فالمؤمنون السائرون على الجادة قريبون من الله برضاه عنهم ورعايته لهم والمؤمنون المخالفون لتوجيهاته الواقعون فى الذنوب بعيدون عنه بحرماتهم من رحمته ورعايته، ويؤيد ذلك صراحة ما رواه أبوهريرة-رضي الله عنه- أن رسول الله-ﷺ- قال: (إن الله لاينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم)[1].

وقد ألمح الزمخشرى إلى هذه النكتة فى استعمال (يا) على هذا الوجه فى قوله: "و(يا) حرف نداء وضع فى أصله لنداء البعيد صوتاً

(١) صحيح مسلم بشرح النووى جـ٨/٣٦٣. كتاب البر والصلة- باب تحريم الظلم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يهتف به الرجل يناديه، وأما نداء القريب فله أى والهمزة؛ ثم استعمل فى مناداة من سها وغفل وإن قرب؛ تنزيلا له منزلة من بعد"[١].

المسألة الحادية والعشرون- إعراب (أى) فى قوله: "أيها المؤمنون" وأثره البلاغى.

والجواب أن النحاة اختلفوا فى إعرابه على مذهبين: الأول: مذهب الجمهور، إذ يرون أنها زائدة جاءت؛ للتوصل إلى نداء مافيه (أل) تفاديا للثقل الناجم من تجاور حرفى (يا) و(أل) لو قلت فى نحو قولك: "يا أيها الرجل". "يا الرجل" يقول الزمخشرى: "و(أى) وصلة إلى نداء مافيه الألف واللام، كما أن (ذو) و(الذى) وصلتان إلى الوصف بأسماء الأجناس، ووصل المعارف بالجمل"[٢]. وتبعه فى ذلك ابن هشام[٣]. الثانى: مذهب الأخفش؛ إذ يرى أنها ليست زائدة، وإنما هى اسم موصول منادى بمعنى (من) ومابعدها جملة اسميه صلة الموصول حذف منها المسند إليه، والتقدير: "يامن هو الرجل"[٤].

والمذهبان يجريان على قوله (تعالى): "أيها المؤمنون"؛ فعلى المذهب الأول فإن النظم يفضى إلى مزية المبالغة فى تنبيه المؤمنين وتهيئتهم لتلقى الأمر بالتوبة وزيادة تقريره فى نفوسهم؛ من جهة أن الكلام على هذا النحو فيه بيان بعد إبهام، فلفظة (أى) تطلق على جميع أنواع المخاطبين فإذا ذكرت كان الكلام مبهما فلايدرى من المقصود

---

(١) الكشاف جـ١/٤٤.

(٢) المصدر والجزء والصفحة.

(٣) مغنى اللبيب جـ١/٧٣.

(٤) المصدر والجزء والصفحة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالنداء، فيتشوق المخاطب إلى معرفته فإذا أردفت بصفتها (المؤمنون) فسر المبهم وعين المقصود بالنداء والمخاطب على هذه الحالة من التشوق؛ فيكون وقوعه فى نفسه ألذ وأوكد. وهذه واحدة من روائع الزمخشرى ولفتاته التى لاتحصى، تأمل كلامه وهو يفسر دلالة النظم على هذا الوجه فيقول عن (أى): "وهو اسم مبهم مفتقر إلى مايوضحه، ويزيل إبهامه فلابد أن يردفه اسم جنس أو مايجرى مجراه يتصف به؛ حتى يصح المقصود بالنداء، فالذى يعمل فيه حرف النداء هو (أى) والاسم التابع له صفته كقولك: "يازيد الظريف" إلا أن (أى) لايستقل استقلال (زيد) فلم ينفك عن الصفة؛ وفى هذا التدرج من الإبهام، والتوضيح ضرب من التأكيد والتشديد"[1] تجد لفظه ينطق بسمو ذوقه الفنى وملكته البلاغية الفائقة. وعلى المذهب الثانى يفقد النظم معنى التوكيد؛ بفقده مزية البيان بعد الإبهام؛ لأن اعتبار (أى) اسم موصول بمعنى (من) يلزم عنه وضوح المنادى من أول الأمر فلا تشويق فيه.

وتخريج النظم على مذهب الجمهور أدق وأبلغ؛ من وجهين: **الأول: كون الحمل على الأكثر أولى وأرجح. الثانى: أن حمل النظم على ماهو أوكد للمعنى أحق وأولى**- على حد كلام الزمخشرى.

(١) الكشاف جـ١/٤٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المسألة الثانية والعشرون- زيادة (ها) فى قوله: "أيها المؤمنون" ودخوله على نعت المنادى.

والجواب أن المعنى فى زيادته التصعيد والإمعان فى تقرير الأمر بالتوبة؛ بإضافة أداة توكيد ثالثة إلى (يا)، والبيان بعد الإبهام، شأنها فى ذلك شأن زيادة (ها) فى قولك: "هاهوذا" فى كونها توكيدا لاسم الإشارة، وهو معنى أشار إليه سيبويه فى معرض حديثه عن دلالة (ها) فى أسلوب النداء يقول: "وأما الألف والهاء اللتان لحقتا (أى)؛ توكيدا فكأنك كررت (يا) مرتين إذا قلت: "يا أيها"، وصار الاسم بينهما كما صار (هو) بين (ها) و(إذا) إذا قلت: "هاهوذا". وقال الشاعر:

من أجلك (يا) التى تيمت قلبى وأنت بخيلة بالود عنى

شبهه بـ (يا الله)[1] وللقدماء كلام ثمين فى زيادة (ها) فى النظم، وبلاغته مماليس هذا موضعه[2].

المسألة الثالثة والعشرون- حذف ألف (ها) فى قوله: "أيه المؤمنون".

والجواب أنهم اختلفوا فى ذلك على مذهبين، فذهب بعضهم فيما نقله أبو عمرو الدانى إلى أن الألف حذفت من (ها)؛ للإيجاز والاختصار فى ثلاثة من مواضع النداء فى القرآن الكريم، هذا الموضع فى سورة النور،

---

(١) الكتاب جـ٢/١٩٧.

(٢) انظر فى ذلك: الكتاب جـ٢/٣٥٣- ٣٥٥، شرح الكتاب للسيرافى جـ١/١١٨، معانى الحروف للرمانى/٩١، ٩٢، المفردات للراغب/٥٤٨، نتائج الفكر للسهيلى/٢٢٩، رصف المبانى للمالقى/٤٠٤، ٤٠٥، مختار الصحاح/٣١١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ﴾[1]. فى الزخرف، و﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ﴾[2] فى الرحمن[3].

وذهب الزمخشرى إلى أن المغزى من الحذف التخفيف وتفادى الثقل الناشىء عند ذكر الألف من التقاء الساكنين- سكون ألف (ها) ولام (المؤمنون) يقول: "وقرئ (أيه المؤمنون) بضم الهاء، ووجهه أنها كانت مفتوحة؛ لوقوعها قبل الألف؛ فلما سقطت؛ لالتقاء الساكنين أتبعت حركتها حركة ماقبلها"[4].

وما ارتآه الزمخشرى أصح وأولى، يؤيده الدليل بخلاف الرأى الأول فإنه مردود بذكر ألف (ها) فى بقية مواضع النداء فى القرآن؛ فليس ثمة من دليل عندهم؛ لإيثار الإيجاز فى المواضع الثلاثة دون غيرها فى القرآن؛ لذا كان الأولى البحث عن مغزى معنوى يقتضيه تخصيص هذه المواضع بالحذف وهو- فيما أرى- المبالغة فى إثبات الغرض المسوق له الكلام فى كل موضع، وهى على الترتيب حاجة البشر إلى التوبة فى سورة النور، وذم سيدنا موسى من قوم فرعون فى الزخرف، وتهديد الثقلين بإنكار آيات الله وقدرته فى سورة الرحمن. وحذف الألف والإبقاء على الهاء مشعر بتفخيم المعنى وتهويله فى كل؛ بما يجسده انفتاح صوت

(١) الزخرف. آية ٤٩.
(٢) الرحمن. آية ٣١.
(٣) المقنع فى رسم المصحف/ ٢٠.
(٤) الكشاف جـ٣/ ٧٣.

الهاء من الحزم والقوة فى المعانى السالفة الذكر؛ مما لاتراه فى حالة ذكر الألف؛ لمافيه من التراخى، واللين وهما لايتفقان مع حاجة المعنى إلى الشدة فى المواضع الثلاثة.

المسألة الرابعة والعشرون- قراءة (أيه) وأثرها البلاغى.

والجواب أنها قرئت على وجهين: الأول: قراءة الجمهور بفتح الهاء هكذا (أيه المؤمنون) نقله مكى[١]، والعكبرى[٢]، والزمخشرى[٣]، والرازى[٤]، والقرطبى[٥]، والنسفى[٦]، ولم يذكروا موجبه. الثانى: قراءة ابن عامر بضم الهاء هكذا: (أيه المؤمنون)؛ لكنهم اختلفوا فى موجبه فذهب بعضهم- فيما نقله القرطبى-[٧] إلى أنهم جعلوا الهاء حرف مبنى من حروف الكلمة فصارت (أيه) لا (أى) ولزم عن ذلك أن يكون ضم المنادى على الهاء. واعتبره أبوعلى الفارسى توجيها ضعيفا لاينهض بالحكم؛ وذلك من جهتين: الأولى: أن آخر الاسم عنده الياء الثانية من (أى) والهاء زائدة فوجب أن يكون الضم على الياء مع بقاء الهاء مفتوحة على حالها. الثانية: أنه لو جاز ضم الهاء فى (أيه)؛ لاقترانها

---

(١) الكشف عن وجوه القراءات جـ٢/١٣٧.

(٢) التبيان فى إعراب القرآن جـ٢/٩٦٩.

(٣) الكشاف جـ٣/٧٣.

(٤) مفاتيح الغيب جـ٨/٣٦٨.

(٥) الجامع لأحكام القرآن جـ٧/٤٦٣٠، ٤٦٣١.

(٦) مدارك التنزيل جـ٤/١٢٠.

(٧) الجامع لأحكام القرآن. الجزء والصفحة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالكلمة لجاز ضم الميم فى (اللهم) فقيل: (اللهم) ولم يؤثر هذا عنهم[١]، وضعفه الكبرى- أيضا- من وجه آخر وهو كونه مبنيا على التعسف والتكلف[٢]. وذهب الزمخشرى إلى أن العلة فى الضم زوال موجب فتح الهاء؛ لأنها إنما فتحت؛ لوقوعها قبل الألف؛ فلما زالت الألف؛ لالتقاء الساكنين أتبعت ماقبلها فى الضم[٣]، ونقله عنه البيضاوى[٤]. والرازى[٥]، وأبوحيان[٦]. والنسفى[٧]. والصحيح عند القرطبى ترك هذا الخلاف المبنى على التعنت والوقوف عند القراءة الثابتة عن النبى-ﷺ-؛ إذ القرآن هو الحجة على اللغة لا العكس[٨]. ومع وجاهة رأى القرطبى فإنى أرى أن قراءة الفتح أولى بحسن النظم وبلاغته؛ لمافيها من مزية التخفيف بالانتقال من فتح الهاء إلى سكون اللام فى (المؤمنون) بخلاف الضم فالانتقال منه إلى اللام الساكنة فيه ثقل وعسر فى النطق؛ لذا كانت قراءة الفتح أدق وأبلغ فى استقامة النظم.

---

(١) المصدر والصفحة.

(٢) التبيان. الجزء والصفحة.

(٣) الكشاف. الجزء والصفحة.

(٤) أنوار التنزيل/٤٧٥.

(٥) مفاتيح الغيب. الجزء والصفحة.

(٦) البحر المحيط جـ٨/٣٧.

(٧) مدارك التنزيل. الجزء والصفحة.

(٨) الجامع لأحكام القرآن. الجزء والصفحة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والجواب أنهم اختلفوا فى ذلك على مذهبين؛ فذهب الجمهور إلى الوقوف عليها بسكون الهاء، وحجتهم اتباع خط المصحف فى كتابتها بلا ألف بعدها، فوجب اتباع النطق للخط[1]، وذهب أبوعمر والكسائى إلى الوقف عليها بالألف ودليلهم أنها حذفت فى الوصل؛ لالتقاء الساكنين؛ فلما وقف عليها زال موجب الفتح فلزم رد الألف إلى الأصل[2]، واللائق ببلاغة النظم- عندى- الحمل على مذهب الجمهور بسكون الهاء عند الوقف؛ لمافى الوقوف عليه من الخفة، والوقوف على الألف من الثقل؛ والخفة من العلل التى عول اللغويون والبلاغيون عليها كثيرا فى بلاغة الكلام.

المسألة السادسة والعشرون- إعراب تابع المنادى فى (أيه المؤمنون) وأثره البلاغى.

والجواب أنهم اختلفوا فى ذلك على مذهبين:

الأول: الجمهور فقد ذهبوا إلى وجوب رفعه بالتبعية لـ(أى) ولايجوز فيه النصب بالتبعية لموضع (أى) وهو كونها مفعولا للفعل (أدعو) الذى نابت عنه (يا) واستدل الخليل على ذلك بأنه لايجوز حذف الصفة مع (أى) بأن يقال: (يا أى) ولا (يا أيها)؛ إذ لفظ (أى) مبهم يفتقر

(١) الكشف عن وجوه القراءات جـ٢/١٣٦، ١٣٧، البحر المحيط جـ٢/٣٧.
(٢) الكشف جـ٢/١٣٧، الجامع لأحكام القرآن جـ٧/٤٦٣١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى البيان فصار هو وتابعه كالاسم الواحد بخلاف الصفة فى غير (أى) من نحو: (يازيد الظريف) فيجوز حذفها فيقال: "يازيد"، إذ ليست الصفة هنا مقصودة بالنداء كما فى (أى) وهذا مفاد كلام سيبويه فيمانقله عن الخليل إذ يقول: "هذا باب لايكون الوصف المفرد فيه إلا رفعا ولايقع فى موقعه غير المفرد وذلك قوله: "يا أيها الرجل، ويا أيها الرجلان، ويا أيتها المرأتان، فـ(أى) ههنا فيمازعم الخليل (رحمه الله) كقولك: "ياهذا" و(الرجل) وصف له كما يكون وصفا لـ(هذا)؛ وإنما صار وصفه لايكون فيه إلا الرفع؛ لأنك لاتستطيع أن تقول: "يا أى" ولا "يا أيها" وتسكت؛ لأنه مبهم يلزمه التفسير؛ فصار هو والرجل بمنزلة اسم واحد كأنك قلت: "يا رجل"[1]. وتبعه أبوالبركات الأنبارى[2].

الثانى: أبوعثمان المازنى فقد ذهب إلى جواز الرفع بالحمل على اللفظ، والنصب بالحمل على المعنى، مستدلاً على ذلك بالقياس على تابع المنادى فى "يازيد الظريف" فى رفعه ونصبه، والقياس على قراءة من قرأ: "يا أيها الكافرين" بالنصب[3]؛ وعلى مذهبه يجوز قراءة تابع المنادى فى آية النور هكذا "أيه المؤمنون".

والراجح- عندى- وجوب الرفع؛ لأنه أبلغ من جهات ثلاث:

---

(١) الكتاب جـ٢/١٨٨.

(٢) البيان فى غريب إعراب القرآن جـ١/٦٢.

(٣) البيان فى غريب إعراب القرآن جـ١/٦٢، شذور الذهب/٥٣٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأولى: أن الحمل على المشهور أولى. الثانى: أن الحمل على ظاهر اللفظ أظهر؛ إذ لا مقتضى للحمل على المعنى. الثالث: الإيجاز؛ لأن الكلام بالحمل على اللفظ أخصر؛ حيث استغنى بـ(يا) عن (أدعو)، والبلاغة الإيجاز.

المسألة السابعة والعشرون- تخصيص النداء بالمؤمنين دون عموم الناس مع الأمر بالتوبة فى هذا الموضع وغيره من المواضع فى القرآن الكريم إذ قال: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾. دون ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الناس﴾.

والجواب أنه عدل إلى ذلك؛ للمبالغة فى تعظيم شأن التوبة، وبيان مدى حاجة الجميع إليها بوجه أوكد؛ ذلك أن التوبة إذا كانت لازمة وضرورية فى حق المؤمنين أجمعين؛ على ماهم عليه من عقيدة التوحيد وسلوك سبيل الطاعات فإنها فى حق غيرهم من الكفار والمشركين أوكد وأوجب فكأن الكلام فى معنى: "إذا كنت قد دعوت عبادى المؤمنين إلى ملازمة التوبة وهم موحدون فدعوة غيرهم من الضالين المشركين أولى وألزم" ولو أن النداء جاء لعموم البشر فقيل: "أيه الناس" لذهب الغرض المسوق له الكلام، وإلى جانب هذه الفائدة المعنوية فإن فى نداء المؤمنين إيجاز قصر؛ إذ عبر بكلمة واحدة عما لايحصى من الكلمات التى كان يلزم ذكرها لتعيين أسماء البشر من المؤمنين والمشركين.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المسألة الثامنة والعشرون- النداء بصفة الإيمان دون الإسلام مع الأمر بالتوبة فى جميع مواضعه من القرآن الكريم فلم يقل: "أيه المسلمون".

والجواب أن فى ذلك إشعارا بالارتقاء فى تقرير التوبة وضرورتها لعموم البشر باختلاف مراتبهم فى الديانة؛ وتنبيها إلى أن أحدا مهما بلغ فى مرتبة التقوى وتغلغل الإيمان فى سويداء قلبه فإنه لايخلو من اقتراف الذنوب التى يلزم عنها تحصيل التوبة؛ فإذا كان ذلك كذلك فى حق المؤمنين مع وجود الإيمان فى قلوبهم فإنه فى حق غيرهم من المسلمين والكفار والمشركين ومن دون المؤمنين فى مرتبة الإيمان أوكد وأوجب؛ إذ هم أكثر عرضة لاقتراف الذنوب والآثام. بخلاف مالو عبر بصفة الإسلام وقال: "أيه المسلمون" فإنه يوهم خلاف المعنى المراد وهو وجوب التوبة على المسلمين ومن دونهم ونفيها عن المؤمنين؛ باعتبار أن الأصناف الأولى لا تملك وسيلة الوقاية التى تعصمهم من الذنوب على العكس من المؤمنين؛ فمن أجل توكيد حقيقة عموم التوبة ودفع خلافه جاء النظم بنداء المؤمنين دون غيرهم من طوائف البشر.

وهذا ملحظ دقيق نبه إليه البقاعى فى قوله: "أيه المؤمنون" والتعبير بالوصف؛ إشارة إلى علو مقام التوبة بأنه لايقدر على ملازمتها إلا راسخ القوم فى الإيمان عارف بأنه وإن بالغ فى الاجتهاد واقع فى النقصان

٢٤٤

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهذا الأمر للوجوب، وإذا كان للراسخين فى الإيمان فمن دونه من بـاب أولى[1].

المسألة التاسعة والعشرون- مجئ المسند اسما فى هذا الموضع فقط ومجيئه فعلا فى بقية المواضع فى القرآن الكريم؛ إذ قال هنا (أيه المؤمنون) وقال فى غيره: "يا أيها الذين أمنوا..".

والجواب أنه عدل إلى اسم الفاعل؛ لغرضين. الأول: دوام الإيمـان وثبوته فى قلوب المؤمنين؛ لكون ذلك أدخل وأمعن فى تجـسيد حقيقـة ضرورة التوبة وعظم شأنها ومدى الافتقار إليها؛ كما يومئ إليـه كـلام البقاعى السالف الذكر. الثانى: المحافظة على النسق المعنوى واللفظـى للنظم؛ فأما عن المعنوى فإن الكلام كله من أول الأمر مبنى على المبالغة فى إثبات المعانى وتقريرها وقولـه: "أيه المؤمنون" باسم الفاعل يتناغم مع بقية أجزاء النظم فى إبراز هذا المعنى وتصويره؛ لكونه أدخـل فـى رسوخ الإيمان واستقراره من الفعل لوقيل: "أيه الذين آمنوا"، وأما عـن اللفظى فإن التعبير كله يسوده الإيجاز- كما أشرت إلى ذلك فى المـسألة الثالثة[2]؛ حيث حذف الفعل الأمر (قل)، وحرف النداء (يا) وألـف (هـا) وواضح أن إيثار (المؤمنون) على (الذين آمنوا) يتواءم معها فـى هـذا الغرض؛ من جهة أن اسم الفاعل أخصر من الاسم الموصـول وصـلته؛

(١) نظم الدرر جـ٥/٢٦٠.

(٢) الصفحة ١٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فالأول كلمة واحدة والثانى ثلاث كلمات؛ فلهذين الغرضين كان التعبير بالاسم أدق وأبلغ.

فإذا عرفت ذلك عرفت سر التعبير باسم الفاعل هنا والتعبير بالفعل فى سورة التحريم فى قوله (تعالى): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا...﴾[1] الآية؛ ذلك أن النظم فى كل يطابق معناه وبيانه أن الخطاب فى آية النور لعموم المؤمنين مذنبين وغير مذنبين؛ فاقتضى ذلك تقرير وجوب التوبة وعمومها على وجه الإجمال والإيجاز فى حين أن الخطاب فى آية التحريم جاء فى معرض الحديث عن خواص المذنبين من المؤمنين الذين غفلوا عن ثمار روضة الإيمان التى يعيشون فى كنفها؛ إذ تحكى السورة ما وقع من تظاهر حفصة وعائشة، وما وقع من خيانة امرأتى نوح ولوط، وتلك حال تقتضى التوكيد على غفلتهم واهتزاز إيمانهم الذى بدأ راسخاً ثم هزته الأهواء، وتحفيزهم نحو الرجوع إلى الجادة فكان بناء النظم على وجه تفصيل الأمر بالتوبة، وتفصيل جزائها فى الدارين أدعى إلى التوكيد والإلهاب والتهييج.

(١) التحريم. آية ٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المسألة الثلاثون- حذف متعلق الإيمان مع النداء فى هذا الموضع إذ قال: "أيه المؤمنون" ولم يقل: "أيه المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر"، وكذا مع غيره من نداءات القرآن الكريم.

والجواب أن وراء حذف المتعلق أربعة أغراض: الأول: تعينه وقوة ظهوره لدى جميع المخاطبين؛ لأن فعل الإيمان فى الواقع لايتعلق إلا به، ولو ذكر المتعلق فقيل: "أيه المؤمنون بالله.." لما أفاد هذا المعنى؛ فإن ذكر الشيء يعنى عدم شهرته؛ بسبب تعلق المسند به وبغيره فيفتقر السامع إلى الإعلام به بخلاف حذفه فيدل على العكس، بسبب أن المسند لايتعلق إلا به، وحال الحذف هنا كحاله فى حذف المسند إليه إذا كان المسند مقصوراً عليه قصراً حقيقياً تحقيقياً كما فى قولك: "عالم الغيب والشهادة" وقولك عن أبى الأنبياء: (خليل الله) وعن رسول الله (خاتم الأنبياء) بحذف لفظ الجلالة، وإبراهيم، ومحمد، أو ادعائيا كما فى قولك عن الفاروق: "عادل فى حكمه" فى أن الحذف فى كل يدل على قوة ظهور المحذوف لدى المخاطبين. الثانى: نسبة الإيمان إلى المخاطبين بصورة برهانية من جهة أن النداء عليهم بصفة الإيمان الراسخة فى قلوبهم يعنى شهادة الخالق بإثباتها لهم وهذا الإثبات فى الوقت ذاته يدل على إثبات متعلق الإيمان بطريق اللزوم والاقتضاء؛ إذ الإيمان لايصح إلا به فبوجوده يوجد وبذهابه يذهب، ولو ذكر لفظ المتعلق لتغير حال المعنى؛ لأنه يكون قد دل عليه بلفظه دلالة عارية عن معنى التوكيد. والتقرير. الثالث:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإيجاز؛ للعلم به عن طريق القرينتين اللفظية والمعنوية فأما الأولى فشهادة الخالق لهم بالإيمان فى الآيات السابقة من قوله: "يا أيها الذين آمنوا.." وقوله: "قل للمؤمنين يغضوا..."؛ فكأنه بذلك قد أخبر عن المتعلق ضمنا؛ لتوقف وصف الإيمان عليه، وأما الثانية فمعلوم عقلا أن إثبات الإيمان معول فيه على إثبات متعلقة. الرابع: المحافظة على سمة الإيجاز السائدة فى التعبير.

المسألة الواحدة والثلاثون- تقديم الأمر بالتوبة على نداء المؤمنين فى هذا الموضع فقط من القرآن الكريم دون العكس هكذا: "أيها المؤمنون توبوا إلى الله جميعا لعلكم تفلحون" كالشأن فى المواضع الأخرى.

والجواب أن فى إيثار هذا الوجه أربعة معان: الأول: التنبيه على أن التوبة أصل مشترك بين جميع البشر بغض النظر عن ديانتهم أو اختلاف مراتبهم فى العقيدة الواحدة؛ بما يشعره تقديم التوبة فى اللفظ من تقديمها فى الذهن على صفة الإيمان؛ لأنها السبيل إلى بقائه واستمراره. الثانى: المبالغة فى فظاعة مخالفة التوجيهات الإلهية؛ بتنبيه المخاطبين إلى التطهير منها والتخلى عنها قبل التحلى بالفضائل ومكارم الأخلاق التى هى محط الإيمان على حد قولهم: "درء المفاسد مقدم على جلب المصالح"، وقولهم: "التخلية قبل التحلية". الثالث: المبالغة فى تقرير الأمر وتوكيده؛ من جهة أن فى هذا الوجه تشويقاً لتلقى النداء الذى هو من التوبة بمنزلة

٢٤٨

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الدليل على الحكم، أو السبب من المسبب فيكون الدليل قد جاء إليه بطلب منه وتطلع إليه فيقع فى نفسه أحسن موقع بخلاف العكس؛ إذ يكون قد جاء إليه بلا تلهف فيحرم اللذة والتمكين. الرابع: رعاية حسن النظم؛ لأن الانتقال من الكلام السابق إلى الأمر أخف وأيسر من الانتقال إلى النداء؛ لمافى الأمر من رابط لفظى وهو الواو على العكس من النداء فيكون فى الانتقال إليه عسر ومشقة.

المسألة الثانية والثلاثون- تعقيب الأمر بقوله (تعالى): "لعلكم تفلحون".

والجواب أن بلاغة التعقيب تختلف باختلاف إعراب هذه الجملة، ومفاد كلامهم فى هذا الصدد أنه يحتمل وجهين:

الأول- أن تكون جملة حالية، والمعنى: توبوا إلى الله طامعين وراجين بذلك الفلاح والسعادة فى الدارين، وإليه ذهب ابن عباس(١).

الثانى: أن تكون جارا ومجروراً جملة تعليلية، والمعنى: توبوا إلى الله لكى تفلحوا، أى لتحقيق الفلاح فى الدارين، وإليه ذهب الطبرى(٢)، والقونوى(٣).

فأما على الاحتمال الأول فالمغزى من تقييد التوبة بالحال حث المؤمنين على إخلاص التوبة لله (تعالى) وقت حصولها، والتنبيه على أن

---

(١) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس/١٥٤.

(٢) جامع البيان فى تفسير القرآن جـ١٨/٨٧.

(٣) حاشية القونوى على تفسير البيضاوى جـ٥/٧٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يعول فيها على تطهير النفس من إشراك غير الله فيها؛ بإرضاء مخلوق أو طاعة رياء أو سمعة؛ مما يحبطها ويذهب ثوابها فكأن مراد النظم يؤول إلى معنى: توبوا إلى الله جميعاً توبة تقصدون بها طاعة الخالق ورجاء النفع منه لا طاعة المخلوق، فإن كانت كذلك فقد آتت أكلها، وإلا فلا. وعلى الاحتمال الثانى فالمغزى من إرداف الأمر بالجملة التعليلية تقرير الأمر بالتوبة، وترسيخه فى نفوس المؤمنين، وإثارة عاطفة الإلهاب والتهييج نحو الحرص عليه وكمال العناية به؛ لأن ثمة فرقاً فى المعنى بين أن يوجه الطلب إلى المخاطب عاريا عن الجزاء فيقال: "وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون"، وأن يوجه إليه مصحوبا به- كما فى الآية؛ لاشك أن الطلب فى الصورة الثانية أعلق فى الذهن، وأرسخ فى القلب، فاقتران الشىء بثمرته يدعو إلى قبوله، ويبعث صاحبه إلى التمسك به؛ يشهد لذلك أن الإنسان جبل على تعليق العمل بمايفضى إليه من نفع وفائدة، فإذا كان كذلك كان أشد حرصاً عليه، وأكثر تضحية من أجله؛ ولهذا المعنى اعتبره القرآن والسنة أسلوباً تربوياً عملياً فى الدعوة إلى الله (تعالى) فقرن الأوامر والنواهى بما تفضى إليه من فوائد وثمرات. وهما حافلان بالشواهد التى تدل على بلاغة هذا الوجه من النظم فى تثبيت المعانى وتقريرها مماهو معلوم لدى أهل العلم. وهذا إن دل فإنما يدل على أن الشرع الحنيف قد سبق كل النظريات التربوية الحديثة فى ربط العمل بالجزاء والمكافآت التشجيعية؛ لأنه تشريع العليم الخبير الذى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أحاط بكل شيء علما؛ ومن ثم فإن الأمم التى أخذت بهذا المنهج فازت ونهضت، والتى تجاهلت وتنكرت عادت القهقرى وزلت قدمها وخسرت.

وقد لمح القشيرى فى هذا التعليل لطيفة أخرى حسنة مؤداها تنبيه المؤمنين إلى أن ثمرة التوبة إنما تعود عليهم؛ لأنهم الفقراء إلى النفع والثواب لا على الخالق الغنى الحميد.

وفى هذا يقول: "بين أنه أمرهم بالتوبة؛ لينتفعوا هم بذلك، لا ليكون للحق (سبحانه) بتوبتهم وطاعتهم تجمل. ويقال: أحوج الناس إلى التوبة من توهم أنه ليس بحاجة إلى التوبة"[1]. وهى لطيفة يقتضيها الحال وتساعد عليها القرائن؛ والمعانى لا تتزاحم.

ويتمخض عن الوجه الثانى بناء الكلام على الفصل بين قوله: (تعالى) "وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون" وقوله: "لعلكم تفلحون".

وموجب الفصل يحتمل أمرين: الأول: مابينها من كمال الانقطاع؛ إذ الأولى إنشائية والثانية خبرية. الثانى: شبه كمال الاتصال؛ على أن الثانية بمنزلة جواب عن سؤال أثارته الأولى وكأن سائلا سأل حينما سمع الأمر بالتوبة: لم كان حث جميع المؤمنين على التوبة؟ فجاء قوله (تعالى): "لعلكم تفلحون" كالجواب على ذلك أى لتنالوا أعلى درجات الفوز عند الله (تعالى) فى الدارين.

والذى يقتضيه دعوة الجميع إلى التوبة وتخصيص المؤمنين بذلك حمل النظم على الوجه الثانى؛ لمافيه من مزية تقرير وتوكيد الجملة

(١) لطائف الإشارات جـ٢/٦٠٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التعليلية فى عقول المؤمنين؛ ذلك أن فى تقدير السؤال تشويقاً وترغيبا فى معرفة الجواب والشىء إذا نيل وتحقق بعد التلهف إليه كان ألذ وأمكن؛ ويؤيد هذا الترجيح أن المخاطب فى مقامات الطلب تعتريه تلك الحالة النفسية، من تولد سؤال عقب سماع صيغة الطلب، يبعث فيه تشوقا لمعرفة سببه والباعث عليه، وهذا ظاهر بين لا حاجة إلى الاستدلال عليه.

المسألة الثالثة والثلاثون- التعبير عن المسند إليه اسم (لعل) بضمير الخطاب فى قوله (تعالى) : "لعلكم تفلحون".

والجواب أن فى وروده كذلك معنيين: الأول: المبالغة فى تعظيم المؤمنين وعلو منزلتهم لدى خالقهم؛ لأن فى التعبير بـ(كم) إشعارا باهتمام الخالق بهم وتشريفهم بحضور ساحة الخطاب؛ مما يكون له الأثر فى تحفيزهم نحو الامتثال للأمر وطاعة صاحبه، بخلاف مالو قال: "لعلهم" أو "لعل المؤمنين"، فإنه مؤذن بعكس المعنى السابق. الثانى: الإيجاز؛ إذ عبر بهذين الحرفين عن شتى أفراد المؤمنين الذين لايحصى عددهم إلا الله الذى أحصى كل شىء عددا، والإيجاز معنى ذاتى وسمة لاتنفصل عن بعض المفردات نحو الضمائر، وأسماء الإشارة، والأسماء الموصولة وماشاكلها مماوضع فى أصل اللغة؛ ليستغنى به عن جمهرة الكلمات التى تفصل أطراف المعنى وتوضحه، وهو من خصائص اللغة العربية التى تفضل بها على غيرها من اللغات.

٢٥٢

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المسألة الرابعة والثلاثون- التعبير عن خبر (لعل) بالفعل دون الاسم؛ إذ قال: "لعلكم تفلحون" ولم يقل: "لعلكم المفلحون"؛ قياساً على قوله: "أيه المؤمنون".

والجواب أنه عدل إلى الفعل؛ لمعان ثلاثة: الأول: تجدد الفلاح وحدوثه مرة تلو الأخرى بحيث لاينقطع. الثانى: المحافظة على حسن النظم من جهة أن العدول إلى الفعل يحقق تخفيف النطق وتفادى الثقل عن طريق سهولة الانتقال من الميم الساكنة فى ضمير الخطاب (كم) إلى التاء المضمومة فى الفعل (تفلح) على العكس فى مجيئه وصفاً هكذا (لعلكم المفلحون)؛ فإنه يؤدى إلى الثقل الناجم عن التقاء سكونى ميم الضمير ولام الوصف؛ فلهذه الحكمة كان النظم بالفعل أحسن وأبلغ. الثالث: الإيجاز؛ إذ الفعل أخصر من اسم الفاعل؛ وبذلك يتواءم مع بقية أجزاء النظم فى المحافظة على هذه الصفة التى بنى عليها من أوله إلى آخره.

المسألة الخامسة والثلاثون- إيثار الجملة الاسمية على الفعلية؛ إذ قال: "لعلكم تفلحون" ولم يقل: "تفلحوا".

والجواب أن فى العدول إلى الاسمية فائدتين: الأولى- المبالغة فى إثبات الحكم المسوق له الكلام وهو نسبة الفلاح إلى المؤمنين، وتقريره فى عقولهم من أول الأمر بمالايدع مجالا لشك أو إنكار، ومبعث هذا التوكيد طريقان: الأول: تقديم اسم (لعل) على خبره الفعلى (تفلحون) وفى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هذا تهيئة ذهن المخاطب وتشويقه واستحضار ذهنه لتلقى المحكوم به وهو الفلاح؛ فحينئذ يستقر فى ذهنه ويتأكد فى عقله، على العكس من الفعلية، إذ تخلو من هذه المزية المفضية إلى هذا المعنى؛ لمباشرة السامع بالمحكوم به من أول الأمر. الثانى: تكرار الإسناد؛ حيث أسند الفلاح إلى المؤمنين مرتين مرة بوقوعه مبتدأ وأخرى بوقوعه فاعلاً للفعل المضارع فى "تفلحون".

وظاهر أن ورود جزاء الأمر على وجه التوكيد أدعى إلى حث المؤمنين على العناية بشأن التوبة، وترغيبهم فى سرعة امتثال الأمر، وتحصيله ممالاتراه فى الفعلية. الفائدة الثانية: المحافظة على الفاصلة؛ إذ الكلام على الاسمية يتفق مع الآيات السابقة فى ختمها بحرف النون فهناك قوله (تعالى): ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(١). وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾(٢). وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾(٣).

والنظم بهذا الوجه يعطى الجملة هنا امتدادا يشعر بمعنى اللين والتلطف فى الخطاب، ويحافظ على الإيقاع اللفظى للتراكيب. ولو أن النظم جاء على الفعلية لذهبت الفائدتان، ولما طابق الغرض المسوق له الكلام.

(١) النور. آية ٢٧.
(٢) النور. آية ٢٩.
(٣) النور. آية ٣٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المسألة السادسة والثلاثون- تخصيص الخطاب بالذكور دون الإناث فى قوله: "تفلحون".

والجواب أن الكلام جاء على خلاف الظاهر بتغليب الرجال على النساء، وإلا فالفلاح ثابت للنوعين، والشأن فى توجيه التغليب وبيان مزيته هنا كالشأن فى قوله: "وتوبوا"، وقد سبق فى المسألة التاسعة(١) فينظر فى موضعه.

المسألة السابعة والثلاثون- حذف متعلق الفلاح فى قوله: "تفلحون" فلم يقل: "تفلحون فى كذا وكذا...".

والجواب أن فى حذفه معنيين: الأول: إفادة عموم الفعل وشموله لكل مامن شأنه أن يتعلق به من الأزمنة والأمكنة؛ وحتى تذهب النفس فيه كل مذهب، والكلام بذلك أبلغ فى الارتقاء بأمر التوبة ومزيد العناية بها. الثانى: المبالغة فى المحافظة على الفاصلة؛ إذ الكلام بالحذف يتفق مع أواخر الآيات السابقة فى حرفى الواو والنون؛ ولهذا أثره الذى أشرت إليه فى المسألة قبل السابقة؛ فمن أجل هذين المعنيين كان حذف المتعلق أبلغ من الذكر.

---

(١) الصفحة ٢٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المصادر

١- القرآن الكريم.

٢- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، للإمام أبى السعود محمد بن محمد العمادى ٨٨٣- ٩٥١م- دار إحياء التراث العربى- بيروت- لبنان- الطبعة الثانية- ١٤١١هـ- ١٩٩٠م.

٣- أسماء الله الحسنى للإمام شمس الدين محمد بن أبى بكر بن القيم الجوزية ٦٩١- ٧٥١هـ- تحقيق: يوسف على بديوى، أيمن عبدالرزاق الشوا. دار ابن كثير- دمشق- بيروت- الطبعة الثانية ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م.

٤- أنوار التنزيل وأسرار التأويل. للقاضى ناصر الدين عبدالله بن عمر الشيرازى البيضاوى ت- ٦٨٥هـ- تصحيح: محمد سالم محيسن، شعبان محمد إسماعيل- مكتبة الجمهورية العربية.

٥- الأربعين فى أصول الدين للإمام حجة الإسلام أبى حامد محمد الغزالى ت- ٥٠٥هـ- المكتبة التجارية الكبرى- مصر.

٦- البحر المحيط. لأبى حيان محمد بن يوسف الأندلسى الغرناطى ٦٥٤- ٧٥٤هـ- دار الفكر للطباعة والنشر- بيروت- لبنان ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.

٧- البيان فى غريب إعراب القرآن. لأبى البركات الأنبارى ٥١٣- ٥٧٧هـ- تحقيق د. طه عبدالحميد طه، مراجعة: مصطفى السقا. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٨- التبيان فى إعراب القرآن لأبى البقاء عبدالله بن الحسين العكبرى
٦١٦هـ- تحقيق محمد على البجاوى- دار الجيل- بيروت
لبنان- ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.
٩- التحرير والتنوير. للطاهر بن عاشور- دار سحنون للنشر والتوز
تونس.
١٠- الترغيب والترهيب من الحديث الشريف. للإمام الحافظ زكى ال
عبدالعظيم المنذرى ٥٨١- ٦٥٦هـ. ضبط، وتخريج، وطب
المكتب الفنى لنشر الدعوة الإسلامية بوزارة الأوقاف.
١١- التعريفات. للسيد الشريف على بن محمد الجرجانى الحنفى ٧٤٠
٨١٦هـ، ط. مصطفى البابى الحلبى ١٣٥٧هـ- ١٩٣٨م.
١٢- الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله-ﷺ- وسننه وأ
للحافظ أبى عبدالله محمد بن إسماعيل البخارى السمرقندى ١٩٤
٢٥٦هـ- ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- القاهر
الطبعة الرابعة ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م.
١٣- الجامع الصحيح المسند..... ط. دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابى الحلبى وشركاه.
١٤- الجامع لأحكام القرآن. لأبى عبدالله محمد بن أحمد بن أبى بكر
الأندلسى القرطبى ت- ٦٧١هـ- دار الريان للتراث- ط.
الشعب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

١٥- الخصائص. لأبى الفتح عثمان بن جنى ت- ٣٩٢هـ- تحقيق الأستاذ/محمد على النجار. الهيئة المصرية العامة للكتاب- ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

١٦- الفروق اللغوية. لأبى هلال العسكرى ت٣٩٥هـ- تحقيق: حسام الدين القدسى- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- ١٩٨١م.

١٧- الكتاب. لأبى بشر عمرو بن عثمان بن قنبر ت- ١٨٨هـ- تحقيق: عبدالسلام هارون- الهيئة المصرية العامة للكتاب- الطبعة الثانية ١٩٧٩م.

١٨- الكتاب..... مكتبة الخانجى- دار الرفاعى بالرياض- الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.

١٩- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل. لأبى القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشرى الخوارزمى ٤٦٧- ٥٣٨هـ- دار المعرفة- بيروت- لبنان.

٢٠- الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها. لأبى محمد مكى بن أبى طالب القيسى ٣٥٥- ٤٣٧هـ- تحقيق د. محيى الدين رمضان- مؤسسة الرسالة- الطبعة الرابعة- ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

٢١- الكليات. معجم فى المصطلحات والفروق اللغوية. لأبى البقاء أيوب الحسينى الكفوى ت-١٠٩٤هـ- تحقيق د. عدنان درويش، محمد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المصرى- مؤسسة الرسالة- الطبعة الثانية ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

٢٢- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم- وضع محمد فؤاد عبدالباقى- مكتبة التراث الإسلامى- بيروت- لبنان.

٢٣- المفردات فى غريب القرآن. لأبى القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهانى ت- ٥٠٢هـ- تحقيق: محمد سيد كيلانى- دار المعرفة- بيروت- لبنان.

٢٤- المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى. لحجة الإسلام أبى حامد الغزالى- مكتبة القاهرة- شارع الصنادقية- ميدان الأزهر.

٢٥- المقنع فى معرفة رسوم مصاحف أهل الأمصار. لأبى عمرو عثمان بن سعيد الدانى ت- ٤٤٤هـ- تحقيق: محمد أحمد دهمان- دار الفكر- دمشق- ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

٢٦- المنهاج فى شرح صحيح مسلم بن الحجاج. للحافظ أبى زكريا يحيى بن شرف النووى الدمشقى ٦٣١- ٦٧٦هـ- تحقيق وفهرسة: عصام الصبابطى، حازم محمد عامر- دار الحديث- القاهرة- الطبعة الثامنة ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

٢٧- بديع القرآن. لابن أبى الإصبع المصرى ت- ٦٥٤هـ- تحقيق د. محمد حفنى شرف- دار نهضة مصر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

١١- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، لأبي طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي- ت- ٨١٧هـ- تحقيق الأستاذ محمد علي النجار- المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

١٢- تأويلات أهل السنة لأبي منصور محمد الماتريدي ت- ٣٣٣هـ- تحقيق د. إبراهيم عوضين، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م.

١٣- تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، للمؤلف- المطبعة العامرة.

١٤- دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، للعلامة محمد بن علان الصديقي الشافعي ٩٩٦- ١٠٥٧هـ- تحقيق: محمد حامد الفقي- دار الفكر العربي- بيروت- لبنان.

١٥- جامع البيان في تفسير القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ت- ٣١٠هـ- ط. الأولى- المطبعة الكبرى الأميرية- بولاق- مصر.

١٦- جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام، لابن القيم الجوزية- إدارة الطباعة المنيرية- درب الأتراك- القاهرة.

١٧- حاشية إسماعيل القونوي على تفسير البيضاوي- المطبعة العامرة- ١٢٨٥هـ.

١٨- رصف المباني في شرح حروف المعاني للإمام أحمد بن عبدالنور المالقي ت- ٧٠٢هـ- تحقيق: أحمد محمد الخراط- طبع مجمع اللغة العربية بدمشق.

٣٦- روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى للعلامة محمود الألوسى البغدادى ١٢١٧هـ - ١٢٧٠هـ - ١٨٠٢ - ١٨٥٤م- دار الفكر.

٣٧- رياض الصالحين للحافظ النووى. تحقيق: شعيب الأرناؤوط- مؤسسة الرسالة- الطبعة الثالثة- ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

٣٨- شرح شذور الذهب فى معرفة كلام العرب. لجمال الدين بن هشام المصرى ٧٠٨- ٧٦١هـ - تحقيق- محمد محيى الدين عبدالحميد- دار الأنصار بالقاهرة.

٣٩- شرح كتاب سيبويه. لأبى سعيد الحسين بن عبدالله السيرافى ٣٦٨هـ، تحقيق د. رمضان عبدالتواب. د. محمود فهمى حجازى. د. محمد هاشم عبدالدايم- الهيئة المصرية العامة للكتاب- ١٩٨٦م.

٤٠- صحيح مسلم. لأبى الحسين مسلم بن الحجاج ٢٠٦- ٢٦١هـ

٤١- عناية القاضى وكفاية الراضى على تفسير البيضاوى. لشهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجى المصرى ت- ١٠٦٩هـ- دار إحياء التراث العربى- بيروت- لبنان.

٤٢- فتح البارى بشرح صحيح البخارى. للحافظ أحمد بن حجر العسقلانى ٧٧٣- ٨٥٢هـ- تحقيق: عبدالعزيز بن باز- دار الحديث- الطبعة الأولى- ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٤٣- فى ظلال القرآن. سيد قطب- دار الشروق- القاهرة- ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

٤٤- لطائف الإشارات لفنون القراءات. شهاب الدين القسطلانى. تحقيق: عامر السيد عثمان. د. عبدالصبور شاهين. ط.المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٩٢هـ- ١٩٧٢م.

٤٥- لوامع البينات شرح أسماء الله تعالى والصفات. للفخر الرازى ٥٤٤- ٦٠٦هـ- تحقيق: طه عبدالرءوف سعيد- مكتبة الكليات الأزهرية- ١٣٩٦هـ- ١٩٧٦م.

٤٦- مختار الصحاح. للإمام محمد بن أبى بكر الرازى ٦٢٠- ٦٦٦هـ. دراسة وتقديم د. عبدالفتاح البركاوى- دار المنار.

٤٧- مدارك التنزيل وحقائق التأويل. لأبى البركات عبدالله النسفى ت- ٧٠١هـ- مطبعة عيسىالحلبى.

٤٨- معانى الحروف. لأبى الحسن على الرمانى النحوى ٢٩٦- ٣٨٤هـ- تحقيق د. عبدالفتاح إسماعيل شلبى- دار نهضة مصر- الفجالة- القاهرة.

٤٩- معنى لا إله إلا الله. للإمام بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشى ت- ٧٩٤هـ- تحقيق: على محيى الدين على القرة داغى- دار الاعتصام- الطبعة الثالثة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٥٠- مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب. لابن هشام الأنصارى المصرى ٧٠٨- ٧٦١هـ- دار إحياء الكتب العربية- عيسى البابى الحلبى.

٥١- مفاتيح الغيب (التفسير الكبير). للفخر الرازى- دار إحياء التراث العربى- بيروت- لبنان- ط. الأولى- ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

٥٢- نتائج الفكر فى النحو. لأبى القاسم عبدالرحمن السهيلى ٥٠٨- ٥٨١هـ- تحقيق: د. محمد إبراهيم البنا- دار الرياض للنشر والتوزيع.

٥٣- نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور. للإمام برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعى ت- ٨٥٥هـ- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- الطبعة الأولى- ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مرآة البحث

الموضـــــــــــوع	
افتتاح.	
مقدمة.	
الآية الأولى: المسألة الأولى	- تقديم الأمر بالتوبة فى سورة النور عليه فى هود والتحريم، التقديم ومنزلة التوبة عند الغزالى، التقديم وتركيب النفس البشرية عند سيد قطب.
المسألة الثانية	- علاقة الأمر بالتوبة بما قبله، ودلالته.
المسألة الثالثة	- العدول عن خطاب الرسول إلى خطاب المؤمنين بحذف (قل). تفاوت التكاليف فى طريق الوحى وأثره فى دلالة العدول. شواهد أخرى؛ لتوكيد مغزى العدول.
المسألة الرابعة	- الالتفات من الغيبة إلى الخطاب فى قوله: "وتوبوا من".
المسألة الخامسة	- إيثار الفعل الأمر "وتوبوا" على المضارع "ولتتوبوا". تفسير دلالة الفعل الأمر على الإيجاز عند الخليل.
المسألة السادسة	- دلالة الأمر فى (وتوبوا)، ومذاهبهم، وتحقيقها.
المسألة السابعة	- التعبير بمادة التوبة دون الإياب، والإنابة والندم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

	الموضــــــــــــوع
المسألة الثامنة	– ورود المسند إليه ضميراً فى (وتوبوا) ودلالته. تأصيل سيبويه لهذه الدلالة، وكيفيته.
المسألة التاسعة	– توجيه الخطاب إلى الرجال دون النساء فى (وتوبوا). عبقرية سيبويه فى حكمة تغليب الذكور على الإناث.
المسألة العاشرة	– تقييد الأمر بالجار والمجرور (إلى الله) وبلاغته.
المسألة الحادية عشرة	– حذف المضاف فى قوله: "إلى الله" وتوجيهه.
المسألة الثانية عشرة	– وقوع الظاهر موقع المضمر فى قوله: "إلى الله". احتمال وجهين فى هذا المسلك وتفسيره.
المسألة الثالثة عشرة	– إيثار لفظ الجلالة على بقية الأسماء والصفات.
المسألة الرابعة عشرة	– حذف متعلق التوبة (من ذنوبكم) وبلاغته.
المسألة الخامسة عشرة	– تقديم الجار والمجرور (إلى الله) على (جميعا).
المسألة السادسة عشرة	– تقييد المسند إليه بكلمة (جميعا). المذاهب والتحقيق.
المسألة السابعة عشرة	– اقتران الأمر بالنداء فى قوله: "أيه المؤمنون".
المسألة الثامنة عشرة	– (يا) ودلالتها على الإيجاز، وكيفيته.
المسألة التاسعة عشرة	–حذف (يا) من النداء وحكمته.
المسألة العشرون	– وقوع (يا) موقع الهمزة ودلالته.
المسألة الحادية والعشرون	– إعراب (أى) فى قوله (أيه) وأثره البلاغى. سمو الذوق الأدبى للزمخشرى فى هذا الشأن.

	الموضوع
المسألة الثانية والعشرون	- زيادة (ها) فى قوله: "أيه" ودلالته.
المسألة الثالثة والعشرون	- حذف ألف (ها) فى قوله: (أيه) ودلالته.
المسألة الرابعة والعشرون	- القراءات فى (أيه) وأثرها البلاغى.
المسألة الخامسة والعشرون	- الوقف على (أيه) وأثره البلاغى.
المسألة السادسة والعشرون	- إعراب تابع المنادى (المؤمنون) وأثره البلاغى.
المسألة السابعة والعشرون	- تخصيص نداء المؤمنين دون عموم الناس.
المسألة الثامنة والعشرون	- تخصيص نداء المؤمنين دون المسلمين.
المسألة التاسعة والعشرون	- ورود المسند اسم فاعل فى هذا الموضع فقط من نداءات القرآن الكريم، وتفسيره.
المسألة الثلاثون	- حذف متعلق الإيمان مع النداء فى هذا الموضع فقط من القرآن الكريم، وتفسيره.
المسألة الواحدة والثلاثون	- تقديم الأمر بالتوبة على نداء المؤمنين فى هذا الموضع فقط من القرآن الكريم وتفسيره.
المسألة الثانية والثلاثون	- تعقيب الأمر بقوله (تعالى): "لعلكم تفلحون". مذاهب وتحقيقات فى نوع التعقيب وبلاغته.
المسألة الثالثة والثلاثون	- ورود المسند إليه ضميراً فى (لعلكم) وبلاغته.
المسألة الرابعة والثلاثون	- مجئ خبر (لعل) فعلا فى قوله: "تفلحون".
المسألة الخامسة والثلاثون	- إيثار الجملة الاسمية على الفعلية فى قوله: "لعلكم تفلحون" وحكمته.
المسألة السادسة والثلاثون	- تخصيص الخطاب بالذكور دون الإناث فى قوله:

الموضـــــــــوع
"لعلكم تفلحون"
المسألة السابعة والثلاثون – حذف متعلق الفلاح في قوله: "تفلحون" وتوجيهه
المصادر والمراجع
مرآة البحث